

ترخيص رقم 2022/244

صدى العلوم

متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة

مجلة شهرية محكمة تعنى بقضايا العلوم النظرية والتطبيقية

الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف المطبوعات: ISSN 2959-9423

السنة الأولى
آب
2023

العدد 1

- **الافتتاحية.** | بقلم رئيس التحرير
- **الملاحظة العلمية أداة معرفية وتقنية للبحث ونظرية للتعلم.** | أ.د. يوسف عبد الأمير طباجة
- **إشكالية الفقيه - السلطان في الفكر السياسي الشيعي.** | د. مريم رضا خليل
- **تطوّر دور المرأة في المجتمع العراقي.** | د. حسن محمد إبراهيم
- **مواقع الرأسمال الفرنسي في لبنان وسوريا في عهد الانتداب.** | د. علي نعيم
- **التقارب بين المعرفة والتكنولوجيا في العلوم الاجتماعية عبر النظرية المجذرة.** | د. علي خليل زريق
- شــعر
  وتجيء جفافًا. | أ.م.د. إيهاب حمادة


بسم الله الرحمن الرحیم





ترخيص رقم 2022/244

مجلة شهرية محكمة تعنى بقضايا العلوم النظرية والتطبيقية

الرقم التسلسلي المعياري لتعريف المطبوعات: issn 2959-9423

رئيس التحرير والمدير المسؤول

د. حسن محمد إبراهيم

 009613973983 

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com

البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com

الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: issn 2959-9431

تصميم شعار المجلة: حسين جفال

الاشتراكات: للأفراد داخل لبنان 80$ أو ما يعادلها
للمؤسسات 125$ أو ما يعادلها
مع رسوم البريد ضمناً

إخراج فني وتنفيذ طباعي:

eight press & production

www.8eightproduction.com | 00961 3 017 565

تضم مجلة **صدى العلوم** نخبة من الأساتذة الدكاترة من ذوي الكفاءة العلمية المرموقة في مختلف العلوم، ليشكلوا أسرة التحرير واللجنة الاستشارية العلمية المحكمة.

أسرة التحرير واللجنة والاستشارية العلمية المحكمة

الاسم	الاختصاص	الجامعة	البلد
أ.د. زينب سلطاني	أدب عربي	رئيسة جامعة الزهراء عليها السلام في كربلاء	العراق
أ.د. محمد محسن	علوم الإعلام والاتصال	عميد المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية في الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. هبة شندب	اللغة الانكليزية	عميدة كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. يسرى مازح	لغة إنكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. آني جوكوليان	لغة إنكليزية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. طراد حمادة (وزير سابق)	فلسفة	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. خنجر حمية	فلسفة	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. معضاد رحال	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. يوسف طباجة	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. هويدا الترك	علوم اجتماعية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. عصام الحاج علي	تاريخ/ إسلامي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. محمد مراد	تاريخ	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. قيس الجنابي	تاريخ/ حضارة الشرق الأدنى القديم	جامعة بابل	العراق
أ.م.د. نبيل سرور	علوم سياسية واقتصادية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. علي جابر	COMPUTER SCIENCES	الجامعة اللبنانية	لبنان

أ.د. إحسان ضياء جواد	PHYSICS	جامعة بابل	العراق
أ.د. ياسمين الغانمي	BIOLOGY/Molecular Genetics	جامعة كربلاء	العراق
أ.د. محمد وسام حيدر المحنّا	BIOLOGY/Comparative Anatomy	جامعة كربلاء	العراق
أ.د. صفاء الحفيظ	لغة عربية	جامعة بابل	العراق
أ. م.د. حسن الزهيري	لغة غربية		العراق
د. زينب الطحان	لغة عربية/ سرد روائي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. حسام الدين أنور عبد العليم	هندسة كيميائية	Manchester University	بريطانيا
أ.د. مايا خالد	لغة فرنسية/ ألسنية	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. فاتن قبرصلي	لغة فرنسية/ أدبي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. محمد عبده	حقوق	الجامعة اللبنانية	لبنان
ا.د. عبير كمال الحركة	حقوق	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. مهى المصري	آثار	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. حيدر خير الدين	آثار	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. جعفر فضل اللّه	آثار وتاريخ الفن/ سياحة وفنادق	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.م.د. أمجاد حميد علي الحسيني	رياضيات	جامعة كربلاء	العراق
أ.د. محمد عاصي أحمد الدجيلي	هندسة صناعية	جامعة بابل	العراق
أ.م.د. أنور ترحيني	الهندسة/ الذكاء الاصطناعي	الجامعة الإسلامية	لبنان
أ.د. خليل إبراهيم خلف الدليمي	إدارة أعمال	جامعة إربد الأهلية	الأردن
أ. م.د. علي زعيتر	اقتصاد	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د. سحر حجازي	علم نفس اجتماعي	الجامعة اللبنانية	لبنان
د. فاطمة دقماق	علم نفس	الجامعة الإسلامية	لبنان
أ.د. صليحة لكحل	علم اجتماع جنائي	جامعة «أحمد بن يحي الونشريسي» تيسمسيلت	الجزائر
أ.د. فراس الربيعي	جغرافية سياسية	جامعة ديالى	العراق



أهداف مجلة «صدى العلوم»

يسرّ إدارة مجلة «**صدى العلوم**» الصادرة في لبنان، بناء على القرار الرقم (244/ 2022) الصادر عن وزارة الإعلام، بتاريخ 18 تشرين الثاني 2022، والمصنفة «**مطبوعة شهرية، غير سياسية، باللغات العربية، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة**»، وبشخص مديرها العام ورئيس التحرير الدكتور حسن محمد إبراهيم، والتي تضم نخبة من الأساتذة الجامعين برتبة بروفسور من ذوي الكفاءة العلمية المرموقة في مختلف العلوم، ليشكلوا أسرة التحرير واللجنة الاستشارية العلمية المحكمة، أن تعلن أهدافها، التي ترتقي بالإنسان والعلوم الإنسانية وتفتخر بأنها تعمل لها ومن أجلها، ومن أبرز أهدافها:

- احترام الإنسان وعقله وروحه وفكره ومعتقد الخير والصلاح.
- تقديم ونشر رسالة العلم والعلوم لما فيه خير الإنسان والإنسانية والتعبير عن الأخلاقيات السامية.
- التواصل فيما بين الإنسان وأخيه الإنسان من خلال نقل الرسالة العلمية ضمن مكارم الأخلاق.
- توسيع آفاق التواصل العلمي بين مختلف الباحثين من مختلف الدول.
- إفساح المجال للباحثين، في شتى دول العالم، لنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية بهدف إظهار الحقائق وتعميم الفائدة.
- نشر الرسالة العلمية التي تحافظ على كينونة الإنسان والإنسانية.

نأمل من الجميع التعاون، وستجدون المجلة بخدمتكم لما هو خير لنا ونشر العلوم إن شاء اللّه.

شروط النشر في مجلة «صدى العلوم»

يسرّ إدارة مجلة «**صدى العلوم**» الصادرة في لبنان، بناء على القرار الرقم (244/ 2022) الصادر عن وزارة الإعلام، بتاريخ 18 تشرين الثاني 2022، والمصنفة «**مطبوعة شهرية، غير سياسية، باللغات العربية، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة**»، وبشخص مديرها العام ورئيس التحرير الدكتور حسن محمد إبراهيم، والتي تضم نخبة من الأستاذة الجامعين برتبة بروفسور من ذوي الكفاءة العلمية المرموقة في مختلف العلوم، ليشكلوا أسرة التحرير واللجنة الاستشارية العلمية المحكمة، أن تضع معايير نشر البحوث العلمية على صفحاتها، حيث يخضع حصراً للشروط العلمية، وأهمها:

1. أن يكون البحث جديداً وغير منشور سابقاً في أيّة وسيلة نشرٍ أخرى سواء أكانت ورقيَّةً أم إلكترونيَّةً، أو مشاركاً في أي مؤتمر علمي، أو مرسل إلى أية مراكز علمية وتدريبية، على أن يتعهَّد الباحث بذلك خطّيًّا عند تقديم البحث للنَّشر.
2. أن يتطابق البحث مع الشروط العلمية من حيث الدقّة والموضوعية والرصانة والتوثيق وتقديم المعلومات الجديدة.
3. يُعرض البحث على اللجنة الاستشارية العلمية، وتقوم إدارة المجلة بعدها بإخطار الباحث بمقبولية البحث أو رفضه.
4. التقيّد بمسألة الاستلال ونسبة الاقتباس ضمن المعايير العلمية المعتمدة في الدراسات الجامعية.
5. بعد عرض البحث على الهيئة العلمية المتخصصة لوضع الملاحظات العلمية، يتوجّب على الباحث الالتزام بها والعمل على تنفيذ تلك الملاحظات، وفي حال عدم التقيّد بالتنفيذ، تكون المجلة في حلّ من نشر البحث أو إرجاعه للباحث.
6. يتوجب على الباحث دفع الرسوم المالية قبل نشر بحثه، وفي حال قرّر الباحث عدم النشر فيتوجب عليه دفع رسوم التدقيق والتحكيم البالغة ٪50 من قيمة المبلغ الإجمالي،

ويتم استيفاء رسوم التدقيق والتحكيم قبل الشروع بها وذلك بعد إبلاغه بالموافقة على قبول البحث للنشر.

7. تؤول ملكية البحث أو الدراسة إلى المجلة، فتحتفظ لنفسها بإدخال بعض التعديلات البسيطة.

8. اعتماد منهج «APA»، من حيث ترقيم الفقرات بالأرقام، مثال: (1.) لعنوان الفقرة الرئيسية الأولى، ثم (1.1.) لعنوان الفقرة الفرعي فيها، ثم (1.1.1.) لعنوان الفقرة الفرعي الأدنى؛ ثم نعود إلى الرقم (2.) لعنوان الفقرة الرئيسية الثانية، التي بدورها يندرج فيها العناوين الفرعية الأخرى بصيغة (1.2.) و (1.1.2.) .... إلخ.

9. وضع توثيق المصدر أو المرجع على السطر في المتن ضمن (هلالين)، بصيغة (عائلة المؤلف، سنة الطباعة، الصفحة).

10. إدراج كافة المصادر والمراجع في نهاية البحث وفق الصيغة التالية:

- إن كان المرجع أو المصدر كتاباً:

اسم المؤلف، عائلة المؤلف (دون أي صفة علمية أو سياسية أو إدارية): تاريخ النشر (بين قوسين)، **عنوان المصدر (بخط عريض)**، رقم الطبعة (بين قوسين)، اسم المحقّق أو المترجم، دار النشر، مكان النشر، رقم الجزء (إن وُجد). مثال:

محمّد مراد. (2005)، **تاريخ لبنان الحديث**، (ط 4)، دار الولاء، بيروت، ج 3.

- إن كان المرجع من مجلة علمية محكمة:

اسم الباحث متبوعًا باسم الشهرة، تاريخ النّشر بين قوسين، عنوان المقالة **(بخطّ عريض)** بين علامتي تنصيص «»، **اسم المجلة (بخطّ عريض)**، مكان النَّشر، الفصل، السنة، رقم العدد. مثال:

يوسف طباجة: (2007)، **«الشيخ البهائي، سلوكه الاجتماعي»**، مجلة **العلوم**، بغداد، أيلول 2021، عدد 3.

11. أن لا يتجاوز البحث العشرين صفحة بصيغة World، بمحتوى يتراوح بين 250 ـ 300 كلمة فقط في الصفحة الواحدة.

12. التقيّد بشروط التنسيق الفني عند كتابة البحث على الحاسوب (الكمبيوتر)، باعتماد

الخط Simplified Arabic للبحوث العربية، بقياس 14 للنص، و16 للعنوان، والخط Times New Roman للبحوث باللغة الفرنسية أو الانكليزية وكذلك للأرقام بقياس 14 للنص، و16 للعنوان.

13. تبتعد الكتابة في بداية الفقرة عن الحدّ الأساس للكتابة، ليتبيّن ابتداء الفقرات.
14. إضافة الفاصل بين الفقرات، ليتبين انتهاء الفقرة وابتداء الأخرى.
15. وضع مستخلص في بداية البحث مع كلمات مفتاحية.
16. إرسال البحث منسَّقًا ضمن صيغة مايكروسوفت وورد (word) إلى بريد المجلّة الإلكترونيّ أو عبر الواتس أب أو التلغرام من خلال رقم الهاتف المعتمد.
17. من أجل حفظ حق الباحث، يتوجب على المجلة إدراج اسمه وصفته العلمية عند نشر بحثه.

نأمل من الجميع التعاون، وستجدون المجلة بخدمتكم لما هو خير لكم ونشر العلوم إن شاء اللّه.



ترخيص إصدار مجلة «صدى العلوم»

الجمهورية اللبنانية
وزارة الإعلام
الوزير

قرار رقم : ٤٤/٢٠٢٢

الترخيص باصدار مطبوعة شهرية، غير سياسية ، باللغات العربية ، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة ، باسم " صدى العلوم "

ان وزير الاعلام
بناء على المرسوم رقم ٨٩١٩ تاريخ ٢٠٢٢/٣/١٠ (تعيين وزير الاعلام) ،
بناء على قانون المطبوعات الصادر بتاريخ ١٩٦٢/٩/١٤ وتعديلاته ،
بناء على الطلب المقدم من د. حسن محمد ابراهيم ، والمسجل تحت رقم ١١٩٨ تاريخ ٢٠٢٢/٩/٢٢ (طلب الترخيص باصدار المطبوعة) ،
وبعد استشارة نقابة الصحافة اللبنانية ،
بناء على اقتراح المدير العام لوزارة الاعلام.

يقرر ما يأتي :

المادة الاولى: يمنح د. حسن محمد ابراهيم ، اللبناني الجنسية ، ترخيصا بإصدار مطبوعة شهرية ، غير سياسية، باللغات العربية ، الفرنسية والانكليزية، متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة ، باسم " صدى العلوم " يتحمل مسؤوليتها بنفسه بصفته حائزا على دكتوراه في التاريخ .

المادة الثانية : يكون صدور المطبوعة باللغات الثلاث المذكورة في المادة الاولى في أن معا ومن ضمن العدد الواحد .

المادة الثالثة : تنحى المطبوعة ومديرها المسؤول عن الجدول النقابي للصحافة .

المادة الرابعة : ينشر هذا القرار ويبلغ حيث تدعو الحاجة .

بيروت في :
١٨ تشرين الأول ٢٠٢٢

وزير الاعلام
المهندس زياد المكاري

الوزير - وزارة الاعلام

يبلغ نسخة الى :

رئاسة مجلس الوزراء / المحفوظات
المديرية العامة للامن العام
(دائرة الرقابة على المطبوعات)
دائرة الصحافة والعلاقات العامة والتنسيق
نقابة الصحافة اللبنانية
صاحب العلاقة
الجريدة الرسمية
المحفوظات

نسخة طبق الاصل
قسم أمانة السر

١٨ تشرين الأول ٢٠٢٢

١١٩٨

المحتويات

11 الافتتاحية

بقلم رئيس التحرير

14 الملاحظة العلمية أداة معرفية وتقنية للبحث ونظرية للتعلم

أ.د. يوسف عبد الأمير طباجة

34 إشكالية الفقيه-السلطان في الفكر السياسي الشيعي (العلّامة الحلّي أنموذجًا)

د. مريم رضا خليل

63 تطوّر دور المرأة في المجتمع العراقي مشاركتها في مراسم أربعينية الإمام الحسين عليه السلام نموذجاً

د. حسن محمد إبراهيم

88 مواقع الرأسمال الفرنسي في لبنان وسوريا في عهد الانتداب

د. علي نعيم

113 التقارب بين المعرفة والتكنولوجيا في العلوم الاجتماعية عبر النظرية المجذرة

د. علي خليل زريق

128 [قصيدة العدد] وتجيء جفافًا

أ.م. د. إيهاب حمادة

الافتتاحية

د. حسن محمد إبراهيم(*)

لا شك أن اللّه تعالى ينظر إلى الإنسان نظرة رحمانية في الدنيا، بعطايا جزيلة لا تقف عند حدّ معين، بل أكّد أن عطاياه الجزيلة لا يمكن إحصاؤها، بما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل، الآية 18]، وتشمل الرحمانية المطيعين والعاصين على حدّ سواء، فهو الخالق الرازق الرحمن، مع ما له من صفات أخرى وصف نفسه بها في الدنيا.

كذلك يتوجب علينا العبور إلى الناحية الأخرى التي تتبع الرحمانية الدنيوية، بالصفة الرحيمية التي تتعلق بالآخرة، وقد اتخذ تعالى هاتين الصفتين لتلتصقا باسمه جلّ وعلا، في كل نداء وابتداء، مع ما له من الأسماء الحسنى، ويمكننا أن نضع كل صفة منهما لمرحلة زمنية، الأولى في الدنيا والثانية في الآخرة.

وهنا لسنا بصدد محاضرة دينية، إنما من وجوب الابتداء بـ «بسم اللّه الرحمن الرحيم» لانطلاقة مجلة «**صدى العلوم**»، المجلة العلمية المحكمة، التي منّ اللّه تعالى علينا بتوفيقه بحضورها بين مثيلاتها وفي الصروح العلمية، عسى أن يكون حضورها مفيداً لنا وللباحثين وللقرّاء وللناس أجمعين، منطلقين من رحمانية اللّه تعالى في الدنيا، لننال رحيميّته في الآخرة، من خلال العمل ما بين المرحلتين للإفادة والاستفادة من العلوم والثقافة والتربية والتعليم، على أن يقربنا هذا العمل منه تعالى.

وقبل الشروع بالحديث عن انطلاقة مجلة «**صدى العلوم**»، لا بدّ من تقديم الشكر

(*) رئيس التحرير

الجزيل والتقدير العظيم للهيئة العلمية واللجنة المحكمة وأعضاء التحرير، على إسهاماتهم الكبيرة والفاضلة والتعالي فوق تعبهم وإرهاقهم في الزمن الرديء، وهنا يزيدني شرف أن أعبّر عن كافة الأعضاء بأنهم أهل المجلة وأسرتها، بهم تكبر وبهم تتقدم وبهم تتطوّر، وقد اجتمعوا على الخير والعلم وتقديم نموذج أخلاقي وعلمي صادق، لرفد الساحة العلمية بالمزيد من العلوم الصحيحة والجديدة، على امتداد الاتساع الجغرافي الكبير، غير المحصور في بلد محدد، إنما تجاوزوا كل الحدود الزمنية وكل العوائق المكانية والجغرافية، ليصلوا إلى العقل والفكر.

ومن طبيعة الواجب أن أتوجه بالشكر إلى أشخاص عديدين خارج الأسرة العلمية والتحكيمية، لكل من ساعد وساند وأعان على إصدار المجلة، بموقف أو عمل أو فعل أو حتى كلمة، الأقربون منهم والأبعدون جغرافياً، منهم مدير دار النشر الذي لم يبخل بكرم ومساعدة جليلة، ومنهم من قدّم خدمة عظيمة من مكان بعيد، خارج الحدود، بعمل دؤوب كان له الأثر الكبير في صدورها. وأيضاً هناك من ساهم بعمل فني، والكثيرون الذين أبدوا خدمات هم في الواقع معروفون، إلا أنهم فضلوا أن يكونوا كالجندي المجهول، بعيدين عن الضوء.

وفي العودة إلى الحديث عن انطلاقة المجلة، يمكننا القول أن مجلة «**صدى العلوم**» انطلقت إلى الميدان العلمي، بعد معاناة في بعض الإجراءات، نتيجة الصعوبات التي نعانيها في لبنان، وبعد مرور عدة أشهر على نيل الرخصة الرسمية والقانونية من الوزارة اللبنانية المعنية.

يهمنا في بداية المشوار العلمي الطويل، أن نكون على قدر ثقتكم بنا، وعند حسن ظنّكم، فإننا لا نعمل على الكسب المالي، وهو بالأصل غير متوفر في عمل علمي يُجهد الباحثين وأسرة المجلة، لا سيّما في لبنان، إنما الهدف هو نشر العلم والمعرفة والتواصل اللائق بين العقول، ومصداق لما جاء في الحديث: «زكاة العلم نشره».

تأتي اليوم مجلتنا إلى عالم يرفع شعار العلم والثقافة والتطوّر، غير أن بعض هذه المصطلحات تشكل شمّاعة لدس السم بالعسل، ومن هذا المبدأ، فإن سياسة المجلة تنأى بنفسها عن الأفكار الهدامة للقيم الإنسانية، مهما كان شكلها ونوعها ومصدرها،

وتتوخى الحذر من الكتابات التي لا تعبّر بصدق عن مضمونها الخلاقي والبنّاء، كي لا نتيه بالمفردات والمغلوطات، ولا نجر أبناءنا وأخواننا إلى متاهات تضرّ بهم، أو لا تفيدهم بالحدّ الأدنى.

لذلك تنطلق مجلة «**صدى العلوم**» بخلفية علمية أخلاقية لا يمكن الفصل بينهما، لتقديم كل الخير للمجتمع العلمي وللمجتمع الإنساني، وهذا ما يجعلها حريصة على المضمون العلمي، فهي غير ملزمة بتبني الآراء الـواردة في النصوص مهما كانت مصداقيتها العلمية، إنما تكون وسيلة مساعدة لنشر العلوم والمعرفة، ولذلك نتوسل الأساتذة الباحثين أن تكون أبحاثهم بعيدة عن المشاحنات السياسية والتعصّب الطائفي البغيض، من أجل القيام بالإنسان وعقله وروحه إلى مصاف المقبولية الالهية كما يرضى اللّه تعالى.

نحن نعمل في هيئة المجلة كأسرة واحدة، وروح واحدة، وهدف واحد، لكن باختلاف الاختصاصات العلمية واستنتاج العقول، واختلاف الميادين العلمية وتخصصاتها، فإن المجلة تهتم بكافة العلوم، وتنشر الأبحاث بمختلف الموضوعات، سواء في العلوم الإنسانية أو الإدارية أو التطبيقية أو الطبيعية، على أن يتقيّد الباحثون بالمنهجية العلمية والأسس المتبعة في كتابة البحوث.

الملاحظة العلمية
Scientific Observation/Observation scientifique
أداة معرفية وتقنية للبحث ونظرية للتعلم

أ.د. يوسف عبد الأمير طباجة(*)

مدخل

تنازعت الأفكار والاتجاهات العلمية مابعد فرنسيس بيكُون F. Bacon (1561- 1626) ورينيه ديكارت R. Descartes (1596- 1650) واضعي هندسة المنهج العلمي (الميثودولوجيا Methodology)، حول جدلية الاستقراء Induction والاستدلال أو الاستنباط Deduction، ومحورية لا بل أولوية الملاحظة أم التجربة إزاء العمليات العقلية المقرِّرة لنتائج الأبحاث والدراسات العلمية، ومثال ذلك تناظر وليم هيوول W. Whewell (1794- 1866)، الذي أكد على محورية دور العقل في التقدم العلمي المبني على الوعي بالتاريخ للظاهرة ..، وجون استيوارت ميل J. S. Mill (1806- 1873)، قمة التجريبية الإنجليزية بفكره التبريري Justification اللاتاريخي والمبني على التجريبية المتشددة...، وانتهت بغلبة أفكار الأخير بعد خمود أفكار الأول لقلة ناصيريه في حينها، وهذا ليس جديدا، إذ يقول برتراند راسل Bertrand Rassell (1872- 1970): أن الصراع بين غاليلي ومحاكم التفتيش لم يكن صراعًا بين الفكر الحر والتعصب، أو بين العلم والدين ـ كما هو شائع ـ، بل كان صراعًا بين الاستنباط أو الاستدلال والاستقراء (Bertrand Rassell.1934.p 33).

(*) كلية التربية في الجامعة اللبنانية

سبق كل هؤلاء جميعا العقل العربي الاسلامي؛ ومن بينهم ابن طفيل (ت 581هـ)، الذي اعتمد العقل والملاحظة والتجربة (طوقان، 1962، ص 626)، وأثّر على الفلسفة الغربية (GAUTHIER.1909)، باعتباره أبو «المذهب الطبيعي» الذي يعد أكمل مذهب في التربية.

توصل ابن طفيل إلى الاعتقاد بمعرفة كل شيء عن طريق العقل، باشراق نور اللّه تعالى في القلوب بالمعرفة ، وذلك بالبحث بواسطة الملاحظة والتجربة فيقول: «استقام لنا الحق أولا بطريق البحث والنظر، ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة..» (طوقان، 1962، ص 629).

1. العلم والملاحظة

العلم عن طريق الملاحظة وإعمال العقل؛ يستطيع الكشف عن الحقائق والنظريات والقوانين العلمية ونظمها وتنسيقها، من خلالها يتم توارد الافكار أو الترابط المنطقي للأفكار، فمن يفكر ينظر- بلا ملاحظة وبحث ومنهج - ومن يلاحظ بلا فكر؛ كل منهما لا يصل إلى حقائق دقيقة ذات معنى، وإن وصل، فإما إلى تجريدات غير مبرهنة، أو إلى أكوام من البيانات فاقدة الروح والمعنى (MILLS,1959, p 33-34؛ ميلز، 1986، ص27؛ عبد المعطي، 1981، ص5). فالملاحظة تقنية أساسية في كل بحث علمي ، طبيعي أو إنساني، والاختلاف يكون في أدوات الملاحظة (سماعة الطبيب، المنظار الفلكي، أو دليل الملاحظة كما في العلوم الاجتماعية) (عبد المعطي، 1981، ص5). فكل ملاحظة ملحقة بنظرية، ولا توجد ملاحظة صافية متنزهة متجردة من النظرية، ونستطيع أن نستبين ذلك، حين نسخر قليلا من الخيال، ونحاول المقارنة بين الملاحظة التي يقوم بها إنسان والملاحظة التي تقوم بها نملة أو عنكبوت (بوبر، 2003، ص41).

2. الملاحظة والتجربة

مع تطور نظرية المنهج العلمي، برزت من بين ظهراني جدلية الملاحظة Observation والتجربة Experiment؛ جدلية أخرى لجهة أولوية الملاحظة على الفرضية أم العكس...



كانت قناعة مفكري المذهب الاستقرائي Induction التجريبي استقرت على البدء بالملاحظة للمحيط المدروس...

في حين ذاع اسم ستيوارت ميل وتجريبيته؛ تصاعد نجم التجريبية الانكليزية الرافضة للميتافيزيقيا على يد دافيد هيوم (1776 -1711) D.Hume، بالمقابل؛ كان نجم الفكر التنويري الذي جمع بين عقلانية العلم وتجريبيته يلمع في سماء فرنسا وألمانيا (ديدرو (1784) Diderot و كانط ((1804) Kant، وصولا إلى الفكر الوضعي Positivism القائم على مبدأ الحتمية Determinism»الفيزيائية ثم الاجتماعية فالتاريخية...»، الذي حكمته عقيدة العقل والعلم للتقدم، حيث يقول فيها كلود برنارد Claude Bernard (1813-1878): إنه لا بد للعقل من نقطة ارتكاز أولى، ونقطة الارتكاز هذه هي مبدأ الحتمية المطلقة؛ ولولاها لكان قد قُضي على الإنسان وعقله أن يدور في دائرة مفرغة، وألّا تعلم شيئًا قط (Bernard, 2008, P 65؛ برنارد، 1944، ص45)، والمقتصر ـ أي الفكر الوضعي ـ على الواقع التجريبي مع سان سيمون (1825-1760) Saint-Simon، وتلميذه النجيب أوغيست كونت (1857-1798) A. Comet، مؤسس علم الاجتماع الغربي، باعتبار أن ابن خلدون (1332ـ1406)، هو مؤسس علم العمران البشري، الذي نعتقد أنه التسمية الفضلى لعلم الاجتماع، الذي أنجز المذهب الوضعي معتمداً على الملاحظة الحسية لمعالجة الظواهر الاجتماعية، مستخدماالمنهج التجريبي وفقا للحتمية الميكانيكية، ساعيا للوصول إلى قوانين تعاقب الظواهر وفقًا لمبدأ العلية (طباجة، 2011، ص 45).

حقق كلود برنارد (الطبيب الذي ترك عيادته وتابع أبحاثه العلمية مسهما بتطور نظرية علم المنهج méthodologie)، قفزة علمية انطلاقا من تبنيه الفكر الوضعي والنزعة الاستقرائية بمنحاها التبريري اللاتاريخي، ولم يرفض حجة التعميم الاستقرائي كما فعل هيوول، بل سلم بها ثم واصل المسير في طريقه النقدي، فأضاف إليها الفرض. Hypothèse وبفضل برنار استقر الفرض في منظومة المنهج الاستقرائي كضرورة، ليكون التعميم الاستقرائي نتيجة اختبار فرض.

وفي هذا يميز برنارد تمييزًا قاطعًا بين الملاحظة observation والتجربة

experiment، والفارق الكبير بين الملاحظة والتجربة يعود إلى الفرض كما سنوضح لاحقاً (الكبيسي، 2009، ص 93).

وهذا دوركهايم (1858-1917) Emile Durkheim، بعد أن يستجمع كل الأسئلة التي تحيط بتطور التربية يقول: «إننا لا نستطيع الإجابة على هذه الأسئلة إلا إذا ابتدأنا بملاحظة ظروف نشأتها.. وهكذا فإننا لكي نكوّن المفهوم الأولي للتربية... فإن الملاحظة التاريخية تبدو أنها ضرورية» (Durkheim, 1922, p 47).

3. الملاحظة والحتمية Determinism

المحدودون من الناس عقولهم في أعينهم (البصر)، لأنهم لا يتوغلون في البحث عن الأصـول والجذور «الانتقال من الثمار إلى الجذور» التي أنبتت هذه الثمار والمحاصيل (البصيرة). فعلماء الفيزياء ينطلقون من مسلمة علمية وفكرية تعتمد على الخيال العلمي، بأن العالم ليس هو الشئ الذي يبدو أمام أعيننا فقط، بل ينبغي البحث والتفكر فيه.

فلو استطاع الباحثون الآن نسيان الدرس الفلسفي الأول لـ (علم الفلك) ونظروا الى الظاهرة الأرضية أولاً في مظهرها المباشر، لاعترفوا بأن الملاحظة تكاد لا تقدر أن تعلمنا بالحتمية، لأن الملاحظة المباشرة، لا التفكير ولا التجريب، هي التي تقدم الاشكال النفسية الأولى. وبذلك يدركون ضرورة تعليم (الحتمية)، عن طريق تصحيح الملاحظة بالتجريب. ويكفي الانتباه الفلسفي من أجل البرهان على أن الملاحظة المباشرة لا تنجب الحتمية: فالحتمية لا تربط جميع مظاهر الظاهرة ربطاً محكماً واحداً. فإن نقطة ارتكاز العقل هي مبدأ الحتمية كحقيقة لولاها لكان الانسان يدور في حلقة مفرغة ولا يعرف شيئا (Claude Bernard, 2008, p 65) وتجدر الإشارة هنا إلى أن السببية أو قانون العلية يعد جوهر الحتمية أو وجهها الآخر، يذهب باشلار إلى « أن السببية أعم من الحتمية باعتبار: أن السببية نظام كيفي، والحتمية نظام كمي» (باشلار، 1983، ص 113).

فالمقولة العلمية العربية أن «اليقين لا يدرك من خلال ما يسمعه المرء فقط، وإنما

بما يمكن التدليل عليه بالرؤية العينية (الملاحظة/ المشاهدة والتجربة)» (هونكه، 2007، ص 357).

والواقع أن الحتمية التاريخية في أصلها ـ كما أوضح كارل بوبر ـ حيلة أيديولوجية للصهيونية: حتمية تحقق وعد للّه وعودة شعب للّه المختار إلى أرض الميعاد، وأصبحت هكذا للشيوعية والنازية والفاشية، تخلى عنها جمهرة المؤرخين في القرن العشرين، لدرجة أن المؤرخَين الألمانيين «إدوارد ماير وماكس فيبر»، قاما بدراسة جادة للاحتمال الموضوعي في التاريخ (الخولي، 2000، ص 223).

والحتمية كمرتكز علمي وضحها « كلود برنارد « انطلاقا من تعريفه للإستقراء Induction والاستنباط Deduction قائلاً: حيث لا يمكن لجسم الانسان أن ينتقل إلى الأمام إلا من خلال وضع قدم واحدة أمام الأخرى، كذلك هو حال التقدم الطبيعي للعقل، إذ لا يمكن للإنسان أن يتحرك إلى الأمام إلا من خلال وضع قدم واحدة أمام الأخرى، كذلك هو الحال في التقدم الطبيعي للعقل، إذ لا يمكن للإنسان أن يتحرك إلى الأمام إلا من خلال وضع فكرة قبل الأخرى. وهذا يعني، بعبارة أخرى، فإنه لا بد دائما من موطئ قدم للعقل كما للجسم. فإذا كانت القدم تشعر بالتربة كنقطة ارتكاز للجسم. فإن نقطة ارتكاز العقل هي مبدأ الحتمية كحقيقة، لولاها لكان الانسان يدور في حلقة مفرغة ولا يعرف شيئاً (Bernard, 2008, p 65). وتجدر الإشارة هنا، إلى أن السببية أو قانون العلية يعد جوهر الحتمية أو وجهها الآخر، يذهب باشلار إلى «أن السببية أعم من الحتمية باعتبار أن السببية نظام كيفي، والحتمية نظام كمي» (باشلار، 1983، ص 113).

ولا شك أن الملاحظة وحدها هي التي تعرفنا على الوقائع، ويمكننا القول مع هان Hans Hahn (ت 1934): «إن الوقائع ... لا تدرك إلا بالملاحظة» (بوبر، 2006، ص111).

4. التعلّم بالملاحظة

التعلم بالملاحظة والإبداع ليس أمراً جديداً ومستحدثاً كتدبير عملي، فإن أدنى

تأمل في حياة الشعوب العلمية يكشف لنا بوضوح اضطلاع عدد كبير من العلماء والفلاسفة القدامى بأسس التربية والتعليم بالملاحظة.

إذن، منذ وجود الإنسان على سطح الأرض كان التعليم بالملاحظة وذلك بمحاكاة الأشكال الطبيعية المحيطة به، وذلك قبل الوجودات الكتبية واللفظية آنذاك. إلّا أن تطور اللغات وإن سهلت ووفرت الكثير من الجهد، لم يحجب النظر عن أهمية التعلم بالمشاهدة والملاحظة، ولا تكون الألفاظ بديلا مطلقا، وهذا ما أكدت عليه أصول التربية الحديثة في مفهومها المتطور (MILLS, 1959, p 34).

وبناء على القاعدة الفلسفية الشهيرة: «الوجدان أقوى من البرهان»، أي إن ما نراه بأعيننا أقوى من حيث الدليل مما نراه بأذهاننا. وحتماً الملاحظات ملحقة بنظرية، ولا توجد ملاحظة صافية متنزهة متجردة من النظرية، ونستطيع أن نستبين ذلك، حين نسخر قليلا من الخيال، ونحاول المقارنة بين الملاحظة التي يقوم بها إنسان والملاحظة التي تقوم بها نملة أو عنكبوت (بوبر، 2006، ص 41).

ظهرت نظريّات مختلفة حول التعلّم، منها النظريات السلوكية والنظريّات المعرفيّة، إضافة إلى نظريات التعلّم الإجتماعي والتي منها نظريّة التعلّم بالملاحظة لألبرت باندورا (Albert Pandora).

يقوم مفهوم نموذج التعلّم بالملاحظة على افتراض مفاده «أنّ الإنسان، ككائن إجتماعي، يتأثّر باتجاهات الآخرين، ومشاعرهم وتصرّفاتهم وسلوكهم، أي يستطيع أن يتعلّم منهم عن طريق ملاحظة استجاباتهم وتقليدها». وينطوي هذا الافتراض على أهميّة تربويّة بالغة، إذا اعتبرنا أنّ التعليم بفهومه الأساسي، عمليّة إجتماعيّة. توحي بعض الدلائل بأنّ نموذج التعلّم بالملاحظة، كتقنيّة تعلّميّة ـ تعليميّة، هو أكثر فعاليّة من بعض نماذج التعلّم الأخرى، وبخاصّة في مجال تعليم المهارات الإجتماعيّة، أو المهارات الحركيّة المعقّدة (Bandura, 1973, p 15).

1.4. مراحل التعلُّم بالملاحظة

أربعة مراحل للتعلم بالملاحظة هي:

ـ مرحلة الانتباه Attention.

ـ مرحلة الاحتفاظ Retention.

ـ مرحلة الإنتاج الحركي Motor reproduction.

ـ مرحلة التعزيز Reinforcement.

وعليه، تتّضح أهميّة هذا التعلّم من خلال الدور التفاعلي الذي يقوم به المعلّم داخل الصّف، لأنّه يمثّل نموذجاً غنيّاً بالنسبة للتلاميذ، لتنوّع السلوك الذي يصدر عنه على مرأى منهم .

هذا وقد «بيّنت دراسات عديدة أنّ التلاميذ يتأثّرون بسلوك معلّميهم وتصرّفاتهم، أكثر من تأثّرهم بأقوالهم ونصائحهم.

من هنا تتّضح خطورة دور المعلّم، والدور المهم الذي عليه القيام به أمام المتعلّمين، فالمعلّم المستجيب والمتعاون والإثاري والودود وسريع الغضب والظالم...الخ، يزوّد طلاّبه بأنماط سلوكيّة من حيث يشعر أو لا يشعر. فإمّا أن تكون هذه الأنماط ممّا ينمّي شخصيّة المتعلّم ويوسّع آفاقها، وإما عكس ذلك .

إلى ذلك يقول الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي (والد الشيخ بهاء الدين العاملي) تحت عنوان المصاحبة والأصدقاء: «اعْلَمْ ـ وَفَّقَنَا اللّهُ وَإِيَّاكَ ـ أَنَّ صُحْبَةَ العُقَلَاءِ الأَخْيَارِ الأَفَاضِلُ، وَمُجَالَسَتُهُمْ ، وَمُحَادَثَتُهُمْ، تُثْمِرُ الزِّيَادَةَ فِي العَقْلِ وَالعِلْم وَالعَمَلِ، وَمَحَاسِنَ الأَخْلَاقِ وَالآدَابِ، وَمَعْرِفَةِ مَوَاقِعِ الخِطَابِ. لِأَنَّ اللَّبِيبَ إِذَا رَأَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، بَعَثَهُ عَقْلُهُ وَهِمَّتُهُ عَلَى أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ، فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَآدَابِهِمْ، وَلَا يَرْضَىٰ أَنْ يَقْصُرَ عَنْهُمْ لِمَا يَعْلَمُهُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ قُبْحِ النَّقْصِ. بَلْ قَدْ تَبْعَثُهُ الحَمِيَّةُ عَلَى الزِّيَادَةِ عَلَيْهِمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ بَاعِثاً عَلَى اسْتِزَادَتِهِ، وَسَبَباً لِسَعَادَتِهِ (عبد الصمد، ص130).

5. الملاحظة كنظرية في التنشئة الاجتماعية

استكمالا لنظرية التعلم بالملاحظة، نرى أن أولى مراحل التنشئة هي الملاحظة، وعليه فإن أهم نظريات التنشئة الاجتماعية تدور في فلك الملاحظة، كنظرية دوركهايم ونظرية فرويد ونظرية الدور والمركز (طباجة، 2011، ص 150).

6. أخطاء منهجية Méthodologie في المناهج المدرسية الثانوية Curriculumes

منذ إدخال المناهج الجديدة حيز التطبيق في المدارس الثانوية اللبنانية، برزت العديد من الملاحظات التي تشير إلى أخطاء في مضمونها، ووجوب تصحيحها. الأمر الذي لم يحصل إلى الآن، وهذه مشكلة بحد ذاتها، لجهة وجوب متابعة وتطوير المناهج التعليمية بصورة مستمرة ودائمة.

أما الخطأ الذي نحن بصدد تصويبه الآن، هو نموذج لما أشرنا له منذ بداية تطبيق المناهج الجديدة ، وتمت مناقشته – وأخطاء أخرى – مع طلابنا (أساتذة التعليم الثانوي) في الدورات الإعدادية التي جرت في كلية التربية في الجامعة اللبنانية. إلا أنه لم يُصَر إلى تصحيحها أو بالأحرى تصويبها رسمياً، رغم إنها تدخل في صلب المصطلحات والمفاهيم العلمية التي يزود بها الطالب الثانوي كسلوك معرفي، وهنا الخطورة، ويجري فيها امتحاناته الرسمية . وهنا ندخل في مستويين من الأخطاء: أخطاء منهجية، وأخطاء تعليمية تعلّمية، والتي تتراكم محدثة خللا بنيويا في العملية التربوية.

1.6. في الأخطاء

أما لجهة الخطأ الأول وتداعياته، أو بالأحرى انعكاساته، فمؤداه السير عكس منهجية البحث العلمي المتعارف على أهدافها في العالم كله. باعتبار أن البحث العلمي أصبح اليوم وفي عصرنا الحاضر هو أداة التقدم والرقي والازدهار، وخير مثال ما يحصل في الصين والهند ودول جنوب شرق آسيا، أما لجهة الخطأ الثاني فهو الأمر الذي يشكل صدمة وإرباكا لطلابنا في المراحل الجامعية، عندما يقفون على التناقض بين ما تعلموه وعرفوه أي ما اكتسبوه في المرحلة الثانوية ، وما يتعلمونه في المرحلة الجامعية.

من الأمثلة الواضحة على الأخطاء المشار إليها أعلاه، ما تضمنه الفصل الثالث «التقنيات البارزة في الأبحاث الاجتماعية»، من المحور الأول «علم الاجتماع:



السوسيولوجيا» من كتاب: التفاوت والسياسات الاجتماعية، للسنة الثالثة من المرحلة الثانوية/ فرع الاجتماع والاقتصاد.

الملاحظة الأولى: تم الدخول مباشرة إلى الحديث عن المناهج العلمية (المنهج التاريخي، المنهج التجريبي ..) تحت عنوان: المناهج والمدارس، دون أن يتم تعريف الطالب في هذا المحور على مصطلح ومفهوم المنهج العلمي méthode، وما هو الفرق بينه وبين المنهج المدرسي Curriculume. وهنا لا مجال للتطرق إلى الترتيب المنطقي أو المنهجي الجديد للمنطق العلمي الذي أرسى قواعده «بيكون»، والقائم على التجربة والملاحظة، حيث أفقد المنطق «الأرسطي» قيمته المعرفية Épistémologie إلى الأبد.

الملاحظة الثانية: وهي بيت القصيد في مقالتنا هـذه، وهو ما يتعلق بتقنية الملاحظة Observation. فقد تم الدخول إلى تقنية الملاحظة بتبيان أهميتها بصورة جيدة، لكن القفز إلى أنواع الملاحظة مباشرة، دون تعريفها شكّل الخلل الأول في بنية النص العلمي، أما الخلل الثاني فهو ما ورد حرفياً تحت عنوان: «هناك نوعان من الملاحظة:

ـ الملاحظة المقننة (observation non participante)

ـ الملاحظة بالمشاركة (observation participante)»

وهذا خطأ فادح، إن لجهة أنواع الملاحظة التي هي غير ذلك كما سيتبين أدناه، أو لجهة الترجمة، ففي الفقرة ـ أ ـ تمت ترجمة non participante بكلمة «مقننة»، وهذا خطأ لغوي وعلمي على السواء، وفي الفقرة ـ ب ـ ترجمت participante بكلمة «بالمشاركة»، وهذا هو الصحيح لغوياً وعلمياً، وعليه كان يتوجب ترجمة non participante «بدون مشاركة».

ثم يختم النص في آخر الصفحة «أن هذا المنهج من أهم مناهج البحث ..»دون أن يدري الطالب كيف أصبحت تقنية الملاحظة منهجا بمعنى Méthode !!؟.

2.6. في التصويب: الملاحظة أو المراقبة Observation (طباجة، 2011)

الفصل الثالث : التقنيات البارزة في الأبحاث الاجتماعية

أولاً : تقنيات الملاحظة والقياس

١ ـ الملاحظة :

الملاحظة كأداة للبحث تعتبر من أهمّ وسائل جمع البيانات كما هي أساسية في بحث أي ظاهرة تقريبًا. وهناك بعض أنماط الفعل الاجتماعي التي لا يمكن فهمها حقيقيًا إلا من خلال مشاهدتها، مثلاً: تقاليد شعب ما، الفرق بين سلوك طبقة إجتماعية وأخرى، حياة المجانين.

وأثبتت الملاحظة أهميتها من خلال النتائج المباشرة لها، والتي كانت الدليل القاطع على مصداقيتها، ومن هنا أخذت هذا الدور الرائد في البحث الاجتماعي.

ولا تقتصر ملاحظة الظواهر الاجتماعية على عالم الاجتماع. فكل الناس يلاحظون المواقف الاجتماعية التي يكونون طرفًا فيها أو تكون على مرأى منهم. إلا أن هناك فرقًا هامًا بين ملاحظة عالم الاجتماع وملاحظات الفرد العادي. ذلك لأن على عالم الاجتماع أن ينظم بيانات ويحللها في ضوء النظريات والمفاهيم السوسيولوجية.

يستعان بالملاحظة في الدراسات الاستطلاعية، ولذا فإن موضوعاتها تتميز بالمرونة والشمول وعدم التحديد الدقيق. فلدراسة ظاهرة اجتماعية تعني أنّ على الباحث أن يتجه إلى المجتمع بشكل كلّي من أجل جمع أكبر قدر من المعلومات الأولية عن طريق الملاحظة طبعًا. ومن ثم يضيف إطار ملاحظة حتى يقتصر على المواقف التي تهمّ الباحث، وهنا يتمّ تحديد مكان الملاحظة وزمانها.

هناك نوعان من الملاحظة: 

أ. الملاحظة المقننة (observation non participante) : وهي الملاحظة التي لا يتدخل فيها الباحث بحياة المستطلعين أو المستجوبين، بل يراقبهم عن كثب. وهذه التقنية مهمة على وجه الخصوص في تكوين رؤية عن مجموعة من الأنشطة المعتادة في حياة شخص أو جماعة. يكون المراقب هنا من خارج الجماعة .

ب ـ الملاحظة بالمشاركة (observation participante) : تعني مشاركة الباحث في الجماعة التي يلاحظها، يعيش معهم بكل دقائق حياتهم وتفاصيلها، من مأكلهم إلى ملبسهم إلى سلوكهم إلى معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

وتهدف هذه التقنية إلى التعرف بشكل دقيق وفعلي على ثقافة الجماعة وأسلوبها في الحياة .

ولقد وجد علماء الانتروبولوجيا أن هذا المنهج من أهم مناهج البحث في دراسة المجتمعات البدائية، وكذلك المجتمعات المعاصرة، أي أن الباحث في هذه الحالة يكون مراقبًا من الداخل.

٣٣

صورة الصفحة والنص كما ورد في كتاب: **التفاوت والسياسات الاجتماعية**

1.2.6. تعريفها وأهميتها

الملاحظة هي طريقة البحث الأولى لا بل الأساسية، إذ ما من باحث يمكنه إنجاز بحث أو دراسة ظاهرة ما، إلا وهو ملزم باستخدام تقنية أو منهج الملاحظة، نظراً لضرورتها وأهميتها على السواء.

كان يسميها ابن الهيثم: المراقبة الحسية (هونكه، 2007، ص 149). وأطلق عليها «زكموند» Zkmund: منهج الملاحظة Observation Methods (Zikmund, 1991, p191). ودليلاً على الأفضليات المعطاة للملاحظة، وعلى شرور التأمل النظري أطلق «بوبر»: Poppor «مذهب الملاحظة» Observationism ، على المعتقد اليقيني القاطع/ الدوغما Dogma (بوبر. 2003. ص111). وجعل دونالد جيليس Donald Gillies، قضايا الملاحظة مرادفة لقضايا البروتوكول (جيليس، 2009، ص13).

- **في اللغة**: ورد في معنى «راقب»: حرس وحفظ ولاحظ ، والمراقبة: من يلاحظ أمراً ما .
- **في المصطلح**: الملاحظة: حسية وعقلية. فالملاحظة الحسية هي توجيه الحواس والانتباه إلى ظاهرة معينة أو مجموعة من الظواهر، رغبة في الكشف عن صفاتها أو خصائصها توصلاً إلى كسب معرفة جديدة عن تلك الظاهرة أو الظواهر.

أما الملاحظة العقلية، تكون حيث يستقبل الفكر عن طريق الحواس آثار الأشياء الواقعية وما تبصره العين، وتتجمع هذه الآثار في الدماغ، ثم يقوم العقل بعمليات معقدة لكشف هذه الآثار، فيميز بينها من أوجه شبه أو خلاف، وزيادة أو نقصان، وتقديم أو تأخير. وبعدئذ يقرر العقل ـ وهو الأهم في هذه المرحلة ـ طبيعة الموضوع الذي يجب أن يلاحظه الفرد وبحث عنه، وفي مرحلة الملاحظة هذه يحدد العقل الوسيلة الكاشفة له.

إذن في مرحلة الملاحظة تتكدس الأفكار بعضها على بعض، كما تتكدّس الأحجار في كومة Accumulation (تراكم) بشكل عشوائي، وهي مرحلة الجمع، ويبدأ العقل بعد هذه المرحلة بتقسيم وتوجيه الحجارة وترتيبها Synthèse (تراكب) بشكل منظم، وهذه هي مرحلة الافتراض.

2.2.6. بين الملاحظة والتجربة

تكون الملاحظة مشاهدة يقظة للظواهر كما هي – عن طريق الحواس – دون تغيير أو تبديل. أما التجربة فإنها ملاحظة ظاهرة ما، أو مجموعة من الظواهر، تكون مقصودة بهدف تغيير بعض الظروف الطبيعية التي تحدث في تلك الظاهرة، رغبة في الوصول إلى صفاتها أو خصائصها، والتي لا يمكننا أو ليس باستطاعتنا الوصول إليها بمجرد الملاحظة دون تعديل في ظروفها الطبيعية. ويميز « كلود برنا رد» تمييزاً قاطعا بين الملاحظة والتجربة، وذلك بقوله: «إن الملاحظة أمبيريقية Empirical، أي تجريبية خالصة. أما التجربة والبحوث التجريبية Exprimontal، فهي موجهة في إطار محدد كما أوضحنا آنفاً. ومسلحة بالأجهزة العلمية الدقيقة، بحيث تخلق الظواهر خلقا في المعمل» (طباجة، 2011)، والمثل الواضح هو المقارنة بين الطب الأمبيريقي، القائم على الملاحظة ومحض تراكم وقائع الخبرة، وبين الطب التجريبي، الذي يطمح إلى معرفة قوانين الجسم السليم والمريض، بحيث لا نتمكن معه من توقع حدوث الظواهر فحسب، بل من تنظيمها وتحويلها في حدود معينة، فالطب التجريبي Ex.. هو العلمي حقاً، كونه القائم على الفرض (العقل) والتجربة (الحواس) معاً. لنخلص إلى أن الملاحظة تشكل مع التجريب ثنائياً منهجيًا. تماماً كما أنه لا معنى لملاحظات في حد ذاتها، وأيضًا لا معنى للفرض في حد ذاته، إنهما كلٌّ متكامل أو كيانٌ واحد.

وما التجربة المعملية إلا اصطناع الظروف المطلوب ملاحظتها، وهناك علوم تعتمد على الملاحظة فقط، كالفلك والجيولوجيا، وعلوم تعتمد على التجربة فقط، كالفيزياء والكيمياء، وعلوم تجمع بين الاثنتين كعلوم الطب والحياة.

وذات مرة طلب كلود برنارد فنجانًا من الشاي ليقاوم الإرهاق ويجدد نشاطه، وبهدوء وضعه الخادم الذي تعلَّم ألا يقطع تركيزه، امتدت يد برنار للفنجان، لكنه سحب كأسًا به عينة من بول أرانب جيء بها من أجل التجارب على فيزيولوجيا الجهاز الهضمي. الوعي كله مكرس للتجربة العلمية، وبلا وعي أخذ برنار رشفة من بول الأرانب! ربما انتفض الإنسان العادي اشمئزازًا وتقززًا إن حدث هذا، لكن العالم المتبتل برنار انتبه فجأة على خبرة تجريبية لا تُعوض، فلم يهدرها ولاحظ المذاق

السكري لبول الأرانب التي لم تتناول طعامًا منذ فترة، فطرح برنار السؤال: من أين جاء المذاق السكري؟ وللإجابة عليه دخل في سلسلة أبحاث معملية طويلة انتهت إلى اكتشاف وظيفة البنكرياس ومرض السكر الذي يُعاني منه الكثيرون (أرجوزة ابن طفيل في الطب المخطوط).

يقول كلود برنارد: «عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة، يجب قبول الواقعة ونبذ النظرية، حتى ولو أخذ بها الجميع؛ نظرًا لتأييد مشاهير العلماء» (برنارد، 2005، ص173).

قد توجد أحياناً نظريتان أو أكثر تفسر وقائع وتعميمات معروفة، وفى هذه الحالة نلجأ إلى استخدام إجراء يدعى بالتجربة الحاسمة (أو الملاحظة الحاسمة)، وينطوى هذا الإجراء على التصوّر السببي لموقف تؤدى فيه النظريات المتنافسة إلى تنبؤات متضاربة. وينبغي أن يخلق هذا الموقف لغرض التجربة، أو يكتشف وجوده فى الواقع، والملاحظة ـ حينئذ ـ هي التي تقرر أى النظريات تتطابق مع الواقع وتتفق معه. إن تحققاً من هذا النوع ليس نهائياً أيضاً، لأنه قد تكتشف ـ فيما بعد ـ وقائع، وقد تستمد تعميمات لا تتفق مع النظرية (تيماشيف، 1982، ص38). مثالا الكشف عن وجود الكهرباء بدأ مع الطبيب والمفكر الايطالي لويجي غالفاني Luigi Galvani (ت 1798)، بواسطة الملاحظة، عند انتباهه إلى انقباض عضلة رجل الضفدعة. فهو صاحب نظرية وجود كهرباء في العضلات والجهاز العصبي التي مازالت إلى الآن أساس المناهج العلمية لدراسات الجهاز العصبي.

وهنالك ظواهر وموضوعات متعددة لا يتمكن الباحث من دراستها عن طريق المقابلة والاستبيان، ولا بد له من أن يختبرها بنفسه مباشرة وأن يعيش هذه الظواهر.

فوق أن الملاحظة هي وسيلة يستخدمها الإنسان العادي في اكتسابه لخبراته ومعلوماته، بحيث نجمع خبراتنا من خلال ما نشاهده أو نسمع عنه Empirique، لكن الباحث حين يلاحظ فإنه يتبع منهجاً معيناً يجعل من ملاحظاته أساساً لمعرفة واعية أو فهم دقيق لظاهرة معينة (نيوتن انتهى بملاحظته لسقوط التفاحة، بكشفه عن قانون الجاذبية)، أي أن الملاحظة تتضمن الوصف والتحليل والتصنيف، كما أنها تتضمن

المقارنة أيضاً، ومن هنا كان المنهج التحليلي والمنهج المقارن هو امتداد للمنهج الوصفي (بدوي، 1977، ص 139).

3.2.6. متى تكون الملاحظة علمية؟

الملاحظة تصبح أداة للتحقيق العلمي عندما:

- تخدم صياغة البحث الهدف.

- يكون المخطط منظم.

- تكون مسجلة بشكل منظم، وتتعلق بالمقترحات أو الفرضيات الأكثر عمومية، فضلا عن أن تقدم كعاكسة لمجموعة الفضول المثير Interesting curiosities.

- تخضع لعمليات المراقبة أو السيطرة على الصلاحية والثقة.

1.3.2.6. الملاحظة العلمية

هي عملية منظمة Systematic (غازادا وآخرون، 1986، ص143)، لتسجيل الأنماط السلوكية للناس (حركاتهم، نظراتهم، أقوالهم، كيف القول، تصرفاتهم ..)، والمجسمات أو الأشياء المحيطة بهم (أغراضهم، متاعهم، بيوتهم، مأكلهم ومشربهم ..)، والحوادث (المناسبات، التجمعات ..)، بدون استجواب أو اتصال معهم. والباحث يستخدم منهج الملاحظة The Observation Method، بخصوص مجموعة من البيانات تشهد وتسجل معلومات تبين أحداث تحدث أو تجمع كدليل من سجلات الأحداث الماضية (Zikmund, 1991, p 191).

3.6. أنواع الملاحظة

للملاحظة أنواع وأساليب متعددة، يتداخل بعضها في بعض، ويختلف بعضها عن بعض. وبالرغم من ذلك يمكننا تقسيم الملاحظة إلى فئتين عريضتين هما: الملاحظة البسيطة (Simple)، والملاحظة المنظمة (Systématique) التي يمكن أن نسميها مقننة.

1.3.6 الملاحظة البسيطة

لقد أطلق عليها الباحثون هذه التسمية كونها تتم بملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائياً، وفي ظروفها الطبيعية، دون إخضاعها للضبط العلمي، ودون استخدام لأدوات القياس الدقيقة، للتأكد من دقة الملاحظة وموضوعاتها «الدراسات الاستطلاعية».

2.3.6 الملاحظة المنظمة

يختلف هذا النوع من الملاحظة عن الملاحظة البسيطة اختلافاً يباعد بينهما من حيث الضبط العلمي والتحديد الدقيق، سواء بالنسبة للقائم بالملاحظة أو للأفراد الملاحظين، أو بالنسبة للموقف الذي تجري فيه الملاحظة.

ويسعى هذا النوع من الملاحظة للإجابة على أسئلة الدراسات الوصفية منها، أو التي تختبر فروضاً سببية. في حين أن الملاحظة البسيطة لا تستخدم إلا في الدراسات الاستطلاعية كما أشرنا آنفاً. كما وأن في الملاحظة المنظمة يستخدم عدد من الإجراءات والوسائل التي تساعد على الوصول إلى أكبر قدر من الدقة العلمية، كأدوات القياس الدقيقة كالاستمارة، ومقاييس النزعة المركزية - التي يمكننا الحصول عليها بدقة من البرنامج الاحصائي الالكتروني SPSS - وغيرها، وآلات التسجيل المرئية والمسموعة وغيرها.

وعليه، لا يفترض أن تكون الملاحظة مجازفة أو غير مخططة، بل بالعكس، الملاحظة كتقنية أو وسيلة من وسائل البحث العلمي، لا بل تعتبر الوسيلة الأولى والأهم، يجب أن تكون دائما خبرة موجهة لغرض محدد، ومنهجية مركزة بعناية، ومسجلة بدقة، وهي مثل وسائل البحث الأخرى، يجب أن تخضع للمراجعات العادية، للدقة والصدق والثبات. لذلك يجب أن يعرف الباحث عن ماذا يبحث، وأن يكون قادراً على تمييز الجوانب المهمة للموقف، والعوامل التي لها أهمية قليلة أو ليست مهمة أبدا بالنسبة للبحث، وبطبيعة الحال، فإن الموضوعية أساسية، وطرق القياس والتسجيل الدقيقة والصحيحة يجب أن يكون استخدامها ملائماً.

4.6. تقنيات الملاحظة

يمكن أن تتم الملاحظة بإحدى الطريقتين: بالمشاركة أو بدونها، ومباشرة أو العكس.

1.4.6. بالمشاركة أو بدونها

وهي بدورها تنقسم إلى قسمين:

- **الملاحظة بدون مشاركة Observation non participante**: وهي الملاحظة

التي يقوم بها الباحث بدور المراقب ، دون أن يشترك في أي نشاط يقوم به الأفراد أو الجماعة موضوع الدراسة أو البحث .

- **الملاحظة بالمشاركة Observation participante**: ويعرفها الأنثروبولوجيون بـ«بالمعايشة»، وهي الملاحظة التي يقوم فيها الباحث بدور المشارك في حياة أفراد الجماعة التي ينوي ملاحظتها، وبمساهمته في أوجه النشاطات التي يقومون بها في الفترة المؤقتة، وهي فترة الدراسة أو الملاحظة. ويستلزم هذا الأسلوب من الملاحظة أن يصبح الباحث عضواً في الجماعة المدروسة بالمسايرة والتجاوب معها، وأن يمر في نفس الظروف التي تمر بها، ويخضع لجميع المؤثرات التي تخضع لها، كي يتسنى له ملاحظة الجماعة المدروسة من الداخل (العام) إلى ذوات الأفراد (الخاص). ومن ضروريات نجاح الملاحظة بالمشاركة، ألاّ يكشف الباحث عن نفسه أو يفصح عن شخصيته ليظلّ سلوك الجماعة تلقائياً طبيعياً وعفوياً، بعيداً عن التصنع والرياء. ولقد شاع استخدام هذا الأسلوب من الملاحظة في ميدان الانثروبولوجيا الاجتماعية (الأسرة أو القبيلة أو القرية أو المدينة).

2.4.6. الملاحظة المباشرة Directe، وغير المباشرة Indirecte

تتم الأولى من خلال الاتصال المباشر بالأفراد، أو الظواهر التي ينوي الباحث مراقبتها. أما الملاحظة غير المباشرة، فتتم عندما يقوم الباحث بمراجعة السجلات والتقارير والوثائق في مختلف أنواعها التي يمكن أن تعطي انطباعاً عن الفرد أو الجماعة المنوي ملاحظتها، أو بواسطة الاستمارة أو المقابلة. فعندما يقوم الباحث بملاحظة العمال في المصنع فإنه يقوم بالملاحظة المباشرة، أما عندما يطلع على سجلاتهم التراكمية وما تحويه من بيانات ، فإنه يقوم بالملاحظة غير المباشرة .

والملاحظة المباشرة التي يشترك فيها «علم اللغة» مع عدد كبير من العلوم، هي أقدم تقنية استخدمها الباحثون اللغويون، ولا تزال إلى الآن من أهم طرقهم، وإليها يرجع الفضل في معظم ما وصلوا إليه..فنظمت بذلك موضوعات العلم ونسقت فروعه وسهلت دراسته. وبفضلها كذلك كشف العلماء عن كثير من الحقائق المتصلة

بنشأة اللغة وحياتها وتطورها ووظائفها، والعلاقات التي تربط ظواهرها بعضها ببعض (وافي، 2004، ص 35).

إلى هذا يقسم علماء اللغة الملاحظة إلى أقسام كثيرة باعتبارات مختلفة:

- تنقسم إلى قسمين باعتبار نوع الظواهر اللغوية التي تعالجها: ملاحظة صوتية phonétique؛ وملاحظة دلالية sémantique.
- وتنقسم باعتبار نوع اللغات التي يتناولها البحث إلى قسمين: ملاحظة اللغات الحية؛ وملاحظة اللغات الميتة.
- وتنقسم الملاحظة كذلك باعتبار تعلقها بشخص الملاحِظ أو بغيره، إلى قسمين: الملاحظة الذاتية subjective، والملاحظة الخارجية objective. وهذه الأخيرة تنقسم إلى ملاحظة خارجية سلبية passive وإيجابية positive (وافي، 2004، ص 36).

هذا، وقد أخذ الكثير من علماء اللغة على طريقة الملاحظة، ولعل هذا غنى، حيث لا تزال تقنية الملاحظة المباشرة من أهم الطرق المستخدمة في علم اللغة ومن أعمقها انتاجاً. ولا يمكن لأية شعبة من شعبه الاستغناء عنها، بل أن بعض الشعب لا يواتيها في بحوثها إلا هذه التقنية (وافي، 2004، ص 40).

ويعتبر فرانز بواس Franz Boas (ت (1942، مبتدع الأثنوغرافيا eth، باعتباره أول أنثروبولوجي ينجز تحقيقات «على الطبيعة» بتسليط الملاحظة المباشرة على الفئات البدائية (كوش، 2007، ص 34). ليصبح مؤسس المنهج الاستقرائي والمكثّف الخاص بالميدان، حيث كان يتصور الإثنولوجيا eth، علما للملاحظة المباشرة (كوش، 2007، ص 37).

وأثناء مناقشة باشلار «للحتمية» كظاهرة أو شكل من أشكال المعرفة، يذكر انطلاقاً من بدايات «علم الفلك»، أن الظاهرة الأرضية أولاً في مظهرها المباشر نقرّ بأن الملاحظة تكاد لا تقدر أن تعلمنا بالحتمية، لأن الملاحظة المباشرة، لا التفكير ولا التجريب، هي التي تقدم الأشكال النفسية الأولى. وبذلك ندرك ضرورة تعليم «الحتمية»، عن طريق تصحيح الملاحظة بالتجريب (باشلار، 1983، ص 106). نقول أليس الأجدر مقاربة جدلية الفطرة؟ لنختم على أمل طرح الاشكالية في بحث أخر.

لائحة المصادر والمراجع

1. المصادر والمراجع العربية

- ابن طفيل: **أرجوزة ابن طفيل في الطب**، المحفوظة في مكتبة جامعة القرويين في مدينة فاس في المغرب برقم 1969، والتسلسلي 3157.
- باشلار، غاستون: **الفكر العلمي الجديد** (1983)، ترجمة عادل العوا، مراجعة عبد اللّه عبد الدايم، دار مجد، بيروت، ط 2.
- بدوي، عبد الرحمن: **مناهج البحث العلمي** (1977)، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 3.
- برنارد، كلود: **مدخل إلى دراسة الطب التجربيبي** (1944)، ترجمة يوسف مراد وحمد اللّه سلطان، المطبعة الأميرية، القاهرة.
- برنارد، كلود: **مدخل إلى دراسة الطب التجريبي**، (2005)، ترجمة يوسف مراد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- بوبر، كارل: **إسطورة الإطار** (2003)، ترجمة يمنى الخولي، عالم المعرفة، عدد 292، الكويت.
- تيماشيف، نيقولا: **نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها** (1982)، ترجمة محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط2 .
- جيليس، دونالد: **فلسفة العلم في القرن العشرين** (2009)، ترجمة حسين علي، التنوير للطباعة والنشر، بيروت.
- الخولي، يمنى: **فلسفة العلم في القرن العشرين**، (2000)، عالم المعرفة، عدد 264، الكويت.
- حجاج ، علي حسين: **نظريات التعلم**، (1983)، عالم المعرفة، عدد 70، الكويت.
- طباجة، يوسف: **منهجية البحث، تقنيات ومناهج، جدولة وتحليل البيانات**

باستخدام البرنامج الإحصائي الالكتروني SPSS (2011)، دار الهادي ، بيروت، ط 1.

- طوقان، قدري حافظ: **العقل عند ابن طفيل** (1962)، مجلة العرفان، صيدا، م 49.
- العاملي (الشيخ)، حسين بن عبد الصمد: **مخطوط نور الحقيقة ونور الحديقة.** مكتبة ليدن بهولاتدا، رقم 970.
- عبد المعطي، عبد الباسط: **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع** (1981)، عالم المعرفة عدد 44، الكويت.
- غازادا وآخرون، جورج: **نظريات التعلم** (1986)، دراسة مقارنة، عالم المعرفة، عدد 108، الكويت، ج 2.
- كوش، دنيس: **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية** (2007)، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- ميلز، رايت: **الخيال العلمي الاجتماعي** (1986)، ترجمة عبد الباسط عبد المعطي وآخرون، دار المعرفة الجامعية، القاهرة.
- هونكه، زغريد: **العقيدة والعلم، وحدة الدين الأوروبي وعلم الطبيعة** (2007)، ترجمة محمد خالد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- وافي، علي عبد الواحد: **علم اللغة** (2004)، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 9.

2. الأجنبية

- William G Zikmund (1991), **Business Research Methods**, 3ed, Fert Worth The Dryden Press, U S A.
- E. Durkheim: **Education et sociologie**, puf 1922.
- Claude Bernard: **Introduction à l’étude de la médecine expérimentale, Les classiques de sciences sociales, PhiloSophie** © mai 2008.
- C. WRIGHT MILLS (1959), **The Sociological Imagination**, Oxford

University Press.

- Léon GAUTHIER (1909**), IBN THOFAILL SA VIE, SES ŒUVRES**. Ernest Leroux. Paris.
- Bandura, Albert (1973), **The’orie d’e’tude sociale**, New York, pression D’Etude Ge’ne’rale.p 15
- Bertrand Rassell (1934), **The Scientific outlook**, George Allen & Unwin, London.
- C. Wright Mills (1959), **The Sociological Imagination**. OXFORD UNIVERSITY PRESS.
- Frédéric LE PLAY (1879), **LA MÉTHODE D’OBSERVATION,** PARIS.

إشكالية الفقيه-السلطان في الفكر السياسي الشيعي

(العلّامة الحلّي أنموذجًا)

د. مريم رضا خليل(*)

ملخص البحث

يرصد البحث مساهمة العلّامة الحلّي في حل إشكالية الفقيه-السلطان باستخدام منهج التتبع والاستقراء والمقارنة. لقد سعى لبناء ممارسة سياسية واقعية تكرس النسق الفقهي المتطور باتجاه التعاطي الواقعي مع حيز السلطة، عبر مسارين: حفظ الدين والمذهب وإثبات أحقيته؛ وتثبيت صلاحيات ولائية للفقيه - ولو نظريًّا- زخرت بها مؤلفاته في أصول الفقه.

ويجيب منهج مقارنة فكر العلّامة كمرحلة وسطية ما بين مفهوم العلاقة مع السلطان في رسالة الشريف المرتضى والخروج عن منهج الطوسي في الاجتهاد من جهة؛ ونقل تجربة مدرسة الحلة إلى جبل عامل مع الشهيد الأول من جهة ثانية، عن مساهمة العلامة في الإجابة عن إشكالية علاقة الفقيه بالسلطان.

أبرز الكلمات المفتاحية: العلّامة الحلّي، مدرسة الحلّة، السلطة، السلطة السياسية الشيعية، الفكر الإمامي، الفقه السياسي.

(*) أستاذة جامعية، باحثة في الشأنين السياسي والاجتماعي

Abstract

The research monitors the contribution of Allamah Al-Hilli in solving the problem of the "Faqih"-the Sultan; using the method of tracking, induction, and comparison. He sought to build a realistic political practice that enshrines the developed jurisprudential pattern towards realistic dealing with authority, through two paths: preserving religion, sect and proving its eligibility; establishing the powers of the "faqih" in his many books.

The approach of comparing Al-Hilli's thought as a middle stage between the concept of the relationship with the sultan found in Sharif al-Murtada's Message with the departure from al-Tusi's method in "ijteehad"on one hand; and the transfer of the Hilla School's experience to Jabal Amel with the "First Martyr", on the other hand, explains the scholar's contribution concerning the problematic issue.

The most prominent keywords: Allama al-Hilli, School of Hilla, Authority, Shiite Political Authority, Imami Thought, Political "Fiqh".

المقدمة

إنّ الحديث عن العلّامة الحلّي (648 ـ 726هـ) ليس بالأمر السهل، فهو صفوة مدرسة الحلّة وخلاصة فقهائها الكبار الثلاث: أولهم ابن إدريس الحلّي (ت 598هـ/ 1201م) وله السبق في التجديد الاجتهادي في كتابه «الحاوي لتحرير الفتاوي» خروجًا على منهجية الشيخ الطوسي شيخ الطائفة، ومحاججة له؛ ثانيهم المحقق الحلّي (ت 676هـ/ 1277م)، خال العلّامة الذي اجتهد في مسألة سلطة الفقيه بوصفه نائبًا عامًا فحفل كتابه «شرائع الإسلام» بالفتاوى المبنية على النيابة العامة؛ وثالثهم أستاذه الخواجة نصير الدين الطوسي (ت 672هـ / 1273م) الذي أقام صلة مع السلطان هولاكو المغولي مسوّغًا بذلك العمل مع السلطة الغصبية.ظهر تميّز العلّامة وفرادته في دوره في تعميم التشيّع في إيران من جهة، وقدرته على استنهاض مدرسة الحلّة حتى بلغت في عهده قمة حضورها المعنوي وسلطتها الفكرية، من جهة أخرى. وتبدو أهمية هذين الإنجازين أنهما جاءا بعدما خمدت مدرسة بغداد إثر سقوط المدينة على أيدي المغول (656هـ/ 1258م)؛ ما عدّه البعض نهاية العصر الذهبي للإسلام أو

بداية انحدار الحضارة الإسلامية فإذ بمدرسة الحلّة تنتفض وتسجل أيام العلّامة ذروة انجازات القرون السابقة.

أهمية الموضوع والجدة

يطرح البحث دينامية الفكر السياسي الشيعي من خلال دراسة نتاج العلّامة الحلّي ضمن إطار منهجي في مسيرة تطور النظرية السياسية. ويكشف تميّز العلّامة الحلّي وفرادته في عملية احياء علوم آل البيت، عليهم السلام، بعد انهيار مدرسة بغداد إثر الهجوم المغولي. فالعلّامة وإن كان سار على خطى الفقهاء السابقين في طريق تقويم موضعة الفقيه المرجعية والولائية، إلا أن خصوصيات المرحلة وظروفها الصعبة والدقيقة التي عمل بها تكشف صعوبة وصف براعة الشخصية وريادتها. أضف إلى ذلك الانبعاث، فضل العلّامة في باب تقسيم الحديث في علم الاجتهاد والأصول. وعليه، يشكّل جهد العلّامة الحلّي همزة وصل ما بين التراث الفقهي من ناحية، ومرونة الاجتهاد الشيعي من ناحية ثانية؛ بما هي مرونة ديناميكية لا تعرف الثبات، فكانت حلقة ارتبطت بها باقي حلقات سلسلة تاريخ الفقه السياسي الشيعي الطويل.

الإشكالية المركزية

تتمحور الإشكالية المركزية حول انعكاس أو تأثير دور العلّامة في تعميم التشيّع في إيران، وقدرته على استنهاض مدرسة الحلّة في تطوير النظرية السياسية الشيعية في عصر الغيبة. وهي بذلك تحاول الإجابة عن السؤال المركزي التالي بشقّيه:

هل ساهم العلّامة الحلّي في تطور الفقه السياسي الشيعي وتقديم إجابة أو المساهمة في حلّ إشكالية الفقيه-السلطان؟ وكيف تجلّى دوره بخصوصية المرحلة التي عاشها؟

الفرضية المركزية

يفترض البحث أن ضروريات المرحلة اقتضت استثمار العلّامة الحلّي غزارة نتاجه العلمي في حفظ المذهب الشيعي من جهة، وتطوير باب الاجتهاد من جهة أخرى؛ ما

أدّى إلى فتح باب الفقه السياسي على مصراعيه أمام الفقه الشيعي، وهو ما ظهر لاحقًا بشكل أوضح وأكثر تطورًا مع تلاميذ مدرسة العلّامة الحلّي.

المنهج

يستفيد البحث في عملية الربط بين النظرية وتقنيات الملاحظة بما يخدم الإجابة عن الإشكالية من المنهج التاريخي والمنهج التجريبي الاستقرائي. يزوّد المنهج الاول البحث بالشواهد التاريخية اللازمة لمسار البحث والقدرة على ربط الأحداث في عملية فهمها، بينما يؤمّن المنهج الثاني تتبّع الشواهد الجزئية وصولًا للقاعدة الكليّة العامة الحاكمة (طباجة، 2007، الصفحات 34ـ36). الأمر الذي يوفّر للبحث معطيات حول فهم وتحليل علاقات العلّامة وعلومه ودور تصانيفه في البرهنة على دوره الكلي في تطوّر الفقه السياسي من خلال تتبّع مساهمة العلّامة الحلّي في حلّ إشكالية الفقيه ـ السلطان. كما يستخدم المنهج المقارن في دراسة فكر العلّامة كمرحلة وسطية ما بين مفهوم العلاقة مع السلطان في رسالة الشريف المرتضى والخروج عن منهج الطوسي في الاجتهاد من جهة، ونقل تجربة مدرسة الحلّة إلى جبل عامل مع الشهيد الأول، من جهة ثانية، وذلك بهدف الكشف عن مساهمة العلّامة في مسيرة تطور الفقه السياسي الشيعي.

تقسيم البحث

يقسم البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخلاصة وتوصيات بما يخدم مسار الدراسة:

1. التمهيد النظري لإشكالية الفقيه ـ السلطان
2. ظروف ريادة العلّامة الحلّي
3. دور العلّامة الريادي في ازدهار الفكر الإمامي
4. مساهمة العلّامة في الإجابة عن إشكالية الفقيه ـ السلطان

خلاصة البحث والتوصيات

تعرض الخلاصة في نهاية هذا البحث أهم النتائج التي توصل إليها البحث دون أن يعني ذلك اختتام النتائج لأن العلم لا خاتمة له، وتفتح الباب أمام الباحثين الآخرين دفعًا للبحث عن إجابة إشكاليات أخرى يزخر بها تاريخ العلماء، لعل من أهمها النظر في أسباب تهميش تلك المساهمات الغنية في تطور حركة الفكر، وتحديدًا في الفقه السياسي الشيعي. كما تطرح بعض التوصيات في أهمية إحياء تلك المعارف.

1. التمهيد النظري لإشكالية الفقيه - السلطان

تتنوّع تعريفات السلطة، لكنها تتقاطع جميعها مع الاقتران بمعيار الشرعية أو المشروعية ـ مع تجاوز الفرق في معنى الشرعية والمشروعية[1] ـ كمفهوم يشكّل الحدّ الفاصل في تمييز مفهوم السلطة عن غيره، فالشاغل الأساس لكل سلطة هو اكتساب المشروعية (سبيلا، 1992، صفحة 57)، يتداخل مفهوم السلطة مع مفاهيم أخرى مثل التأثير، القدرة، القوة، الإكراه، النفوذ ... وكل «من يتمتع بالقدر الكافي من القوة والمكانة سيعمل على امتلاك السلطة، ويقدم على انتزاعها ممن يمسك بها... فتصبح السلطة مثار نزاعات ...» (لابيار، 1983، صفحة 116).

لقد انشغل الفكر السياسي الشيعي بمفهوم السلطة بدلالته الشرعية والمشروعية أكثر من انشغاله بمفهوم الدولة ومصطلحها. وتحتلّ مسألة السلطة موقعًا مركزيًّا في إشكالية الفكر السياسي الشيعي، إشكالية طبيعة علاقة الفقيه بالسلطان الحاكم غير المعصوم. وهذه الإشكالية تاريخية تعود إلى القرن الرابع الهجري، وتحديدًا إلى بداية عهد غيبة الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية، الإمام الحجة «المهدي بن الحسن». وقد سعى الفقهاء حثيثًا لتحديد الصيغة الفقهية المناسبة لموقع السلطة وصاحبها وحدودها في ظل غيبة الإمام المعصوم، صاحب الولاية المطلقة. وترتبط السلطة في الفكر الشيعي لغةً (الأصفهاني، 2009، الصفحات 171، 172، 317، 710 ـ 712)

---

(1) الفرق بين الشرعية والمشروعية: الشرعية (legality) وتعني الالتزام بالقانون، وهي القاعدة الأساس التي يمكن للمواطن فيها الطعن في قرار هيئة سيادية. أما المشروعية (legitimacy) فإنها تتعلق بمفاهيم الحق والسلطة والقبول؛ فالسلطة يقال عنها مشروعة إذا استخدمها من له حق استخدامها. (Scuton، 1982، صفحة 262).

واصطلاحًا بالحاكمية والولاية (الكركي، ع. 1409، صفحة 61؛ الخوئي، 1410، صفحة 86؛ الخميني، الصفحات 325 ـ 326).

1.1. تطوّر إشكالية السلطة

اتّخذ الفكر السياسي الإسلامي الشيعي في بدايات زمن الغيبة ـولفترة ليست قصيرةـ موقفًا سلبيًّا من النيابة عن الإمام المعصوم وممارسة الحكم والسلطة في غيابه، ومدى مشروعية التّصدي لإقامة حكومة إسلامية، حتى عدّ البعض كل دولة في عصر غيبة الإمام المعصوم دولة ظلم وجور. وتعزّزت إشكالية «غصبية السلطة» في زمن الغيبة في ظل الاستبداد والقمع ضد الشيعة، ما خلق انطباعًا لدى الكثيرين بعدم جدوى الثورة أو الرفض والخروج على الحكم القائم. وكانت المرحلة الأولى من عصر الغيبة بالنسبة للفقهاء الشيعة من أدق المراحل، بل وأخطرها لجهة ضرورة تجويز عمل السلطان رغم خطورتها، وأهمية تحديد طبيعة العلاقة مع السلطة.

شكّل الاجتهاد عند الشيعة الخطوة الأساس على طريق الحل لضرورته وأهميته في تلبية الشريعة متطلبات التغيير الاجتماعي (الخراساني، 1420، http://iranarab.com)، ومجاراة الحراك التاريخي ومواكبة التطورات الفكرية العصرية. والاجتهاد هو عملية فهم الموقف العملي للفرد المسلم والجماعة المسلمة، في كل زمان ومكان، من خلال فهم النص الديني طبقًا لشروطه الخارجية والداخلية، أي شروط السند والمتن. وبعبارة أوضح، إن الاجتهاد يعني إفراغ الجهد والوسع لاستنباط أي استخراج الحكم من النصوص، كما تقرّر بصريح العبارة لدى المحقّق الحلّي، أستاذ العلّامة وخاله.

إنّ الاجتهاد بطبيعته دليل على غنى ومرونة الفكر الشيعي لما يفضي إلى تنوع الآراء وتعدد النظر الفقهي في الموضوع الواحد، تبعًا لتنوع أدلة الاستنباط الفقهي، والاختلاف في فهم هذه الأدلة. وهذه الآلية في استنباط الحكم من النص كانت مقررة منذ بداية التنظير لدى الاتجاه الشيعي (مطهري، 1047، صفحة 24). بيد أن مصطلح «الاجتهاد» الغالب بمعنى الأخذ بالرأي والقياس عند أهل السنّة، حال سابقًا دون أخذ الفقهاء الشيعة به، مما يفسّر تأخر ظهور علم الفقه السياسي في مدرسة أهل البيت قرونًا عديدة عن ولادة الفقه السياسي السني (الرفاعي، 2013، صفحة 97)، رغم أن



البحث في إشكالية السلطة استقرّعند الشيعة. فالشيعة بعد غيبة الإمام المعصوم «كانوا في أمسّ الحاجة إلى مسوّغات شرعية لطريقة التعامل مع السلطان ... وقد تصلح تعضيدًا لهذا الرأي الإشارة إلى أن فقهاء الشيعة سبقوا نظراءهم السنّة في الإجابة على العمل السلطاني...» (إبراهيم، 1998، صفحة 60).وقد شاع بداية عن الشيعة العزوف عن طلب السلطة، والإجماع على إبطال الخروج على السلطان الحاكم، وإنكار السيف، والتوافق على التعايش، والخضوع للخلافة القائمة بانتظار عودة الإمام الثاني عشر الغائب. وترافق ذلك مع محاولة الفقهاء الأوائل، أمثال «الشيخ المفيد»[1]، (العسقلاني، 1988، صفحة 416) و«الشيخ الطوسي»[2] (الأمين ح.، 1981، صفحة 143)، و«الشريف المرتضى»[3] (الأمين،م. 2000، م 8، صفحة 213)، التوفيق بين نموذجين من الروايات الشيعية التي سادت تلك الحقبة المعرفية (المجلسي، 1983، الصفحات 32 ـ 100؛ المنتظري، 1988، الصفحات 176 ـ 279)، لحل المعضلة ما بين ملازمة الشرعية للإمامة وعدم شرعية السلطة القائمة من جهة، وضرورة وجود السلطة للانتظام العام والاستقرار ونظم البنيان الاجتماعي بمعزل عن شرعيتها أو عدمها، من جهة أخرى.

2.1. العلّامة الحلّي والتجديد الفقهي

يمكن القول إنّ عملية التشريع الفقهي لصلاحيات الفقيه مرّت بعدة مراحل رافقتها بعض الممارسة الشيعية للسلطة بما يفيد إمكانات تطورها التاريخي من الانعزال والانتظار السلبي إلى مجال التعاطي الواقعي مع حيز السلطة والاندراج التدريجي في حيثياته (فياض، 2010، صفحة 122). تميّزت المرحلة التأسيسية بصلاحيات محدودة

---

(1) هو الشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان، ولد قرب بغداد (338 ـ 413 هـ). عرِف بابن المعلم، ولقّب بالمفيد، أحد علماء الإمامية ومتكلّميها. انتهت إليه رئاسة المذهب الشيعي الإمامي في وقته. نفي عن بغداد على الرغم من جلال عظمته في الدولة البويهية. له نحو مئتي مؤلف، منها: المقنعة، والإرشاد.

(2) يُعرَف بـ «رئيسُ الطائفة»، أبو جعفر محمّدُ بنِ الحسنِ بنِ عليِ بنِ الحسنِ الطوسي. ولد في «طوس»، إيران (385هـ ـ 460هـ)، ثم هاجر إلى العراق، له عدة مؤلفات، أهمها: «الاستبصار فيما اختلف من الأخبار»، أحد الكتب الأربعة التي عليها مدار استنباط الشيعة.

(3) الشريف المرتضى هو عليّ بن الحسين (355هـ435ـهـ). وُلد في بغداد وأصبح «نقيب الطالبيّين» ورئيس الطائفة والحوزة الشيعيّة بعد أُستاذه الشيخ المفيد. أهم كتبه:» الذريعة في أصول الشريعة».

مع الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، والشيخ الطوسي. وكان قد غلب عليهم هاجس معالجة الفراغ الذي أحدثته الغيبة؛ فانشغلوا بالتأكيد المستمر على غصبية السلطة من قبل غير الإمام المعصوم، ولكن مع عدم الخروج من دائرة تلك السلطة أو الخروج عليها لعدم وجود القدرات والقابليات والإمكانيات لتحقق ذلك دون هلاك النفس. وهذا الإنتاج الفقهي هو باكورة الفكر السياسي الشيعي الذي قامت عليه التحولات الفقهية اللاحقة.

كانت الغلبة في المرحلة الثانية لعملية التشريع لصالح المنحى الإخباري[1] (الأمين، م. 2000، م 8، صفحة 222)، على حساب الاتجاه الأصولي[2] الاجتهادي؛ فاهتم الاتجاه الأول بجمع الأحاديث وأبعد الفقيه عن الإفتاء والاجتهاد، وحدّد دوره بدائرة القضاء ومنعه من التصدي للولاية والإمرة، وذلك بعد سقوط الدولة البويهية، وقيام الدولة السلجوقية (447 ـ 590هـ) التي اعتنقت المذهب الشافعي، وضيّقت على المذهب الشيعي. وشهدت المرحلة الثالثة إطلاق حركة التجديد مجددًا، وإنهاء حالة الجمود الفقهي من جديد، والوصل بين الفقه والسياسة مرة أخرى، وإعطاء الفقيه نائب الإمام صلاحيات إقامة الحدود، وذلك مع علماء مدرسة الحلّة.

لقد افتتحت مدرسة الحلّة عهد التجديد الفقهي، وشهدت تطوره على أكثر من صعيد، وشكّلت مرحلة تأسيسية تمهيدية لتحولات مهمة جدًا على صعيد المضمون السياسي الفقهي الشيعي. وهذا الفضل لمدرسة الحلّة لا يمكن تجاهله في سياق التطور التاريخي للفقه الشيعي من ناحية، والفقه السياسي، من ناحية أخرى، وإن كان البعض يراها مرحلة لم تشهد بذاتها تحولات تُذكر (فياض، 2010، الصفحات 129 ـ

---

(1) الأخباريون: فرقة من فرق الإمامية الإثني عشرية؛ يمنعون الاجتهاد في الأحكام الشرعية ويقتصرون على الكتاب (القرآن) والخبر (الحديث)، بحيث لا حاجة إلى تعلم أصول الفقه، ويسقطون دليل العقل والإجماع.

(2) الاتجاه الأصولي ويعتمد في أبرز سماته على مراجع التقليد في المسائل الفقهية، ويستند إلى أربعة مصادر في التشريع، او ما يعرف بالأدلة الأربعة: القرآن والسنة والإجماع والعقل. وعلم الأصول هو العلم الذي يبحث عن أحوال الأدلة الأربعة وحجيتها. بينما اعتبر الآخوند الخراساني في كتابه «كفاية الأصول»، أنّ موضوع علم الأصول لا يختص بالأدلة الأربعة، بل كل مسألة تقع في طريق استنباط الحكم الشرعي تكون موضوعا للأصول (الإيرواني، صفحة 31).

139). ويعدّ العلّامة الحلّي، موضوع البحث، أحد أبرز علماء المدرسة الحلّية على هذا الصعيد. لقد ساهم العلّامة في تشكيل الإطار المعرفي للفقه السياسي الشيعي، سواء على المستوى النظري الفقهي والعقائدي من خلال غزارة تأليفه في الفكر الإمامي، أو على المستوى العملي من خلال علاقته بالسلطان المعاصر له. ويشكّل جهد العلّامة الكبيرفي تجديد الفقه الأصولي والاستدلالي رافعة أساسية لركيزة الاجتهاد التي يقوم عليها الفقه السياسي ضمن عملية البحث عن إجابة طبيعة العلاقة بين الفقيه والسلطان في عصر الغيبة.

2. ظروف ريادة العلّامة الحلّي

إن الكلام عن الدور الريادي للعلامة الحلّي في الدفاع عن المذهب وحفظه من تحدّيات الطمس والاندثار لا يترك مجالًا للاستغراب إذا ما تم التعرّف على هذا العلّامة الفذّ الذي يمكن أن يُطلق عليه في خضم القراءة عن مآثره «العالِم العالَم». لقد ظهرت بوادر هذا الدور في نسب العلّامة ونشأته، وتلاميذه الذين تخرّجوا على يديه، وآثاره القيّمة التي تركها...

1.2.النسب والنشأة

عاش العلّامة الحلّي، أبو منصور الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الأسدي (648 ـ 726هـ)، في أواسط القرن السابع الهجري وعقدين من القرن الثامن الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في ظل أحداث سياسيّة كبيرة ومفصليّة كان لها أثر سلبي على المستوى الفكري والثقافي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي والحضارة العربية والإسلامية، قاطبة (نعمة، 1987، صفحة 272، 273). فقد اجتاح المغول أغلب البلاد الإسلاميّة، وهدم معظم الصّروح العلميّة ودور العلم فيها، واحتلّ بغداد (656هـ/ 1258م)، وأحرق معالمها الحضارية، ومنها مكتبة بغداد التي كانت بحدّ ذاتها إرثًا حضاريًا إسلاميًّا. وبالنتيجة، هرب كثير من رجال العلم والأدب من بطش المغول، بحثًا عن الملاذ الآمن.

وكانت منطقة الحلّة آنذاك قد حصلت على الأمان من زعيم المغول، هولاكو

(الحلي، 1991، صفحة 81، 82) بسبب مساعي والد العلّامة الحلّي، الشيخ سديد الدين يوسف بن المطهر، الذي كان كبير العلماء المفاوضين لسلامة المدينتين المقدستين: كربلاء والنجف، فضلًا عن الحلّة، وتجنّب الفتك والدمار (عوض، 2013، صفحة 256). وكانت معاهد الحلّة العلمية تأسست بعد أن فرّ علماء الشّيعة من بغداد حين دخول السّلاجقة إليها، وبقيت تلك المعاهد تمارس نشاطها بعد سقوط بغداد (الحلي، 1416 هـ، صفحة 30)، واستقطبت روّاد العلم الذين هربوا بحثًا عن الأمان (كركوش، 1416 هـ، صفحة 75).

نشأ العلّامة وسط هذه الظروف وظهر نبوغه؛ عُرف بالعلّامة الحلّي، وهو أشهر ألقابه، بل هذا اللّقب ينصرف إليه عند الإطلاق. كما أنه أوّل من لقّب بـ «آية اللّه» من علماء الإمامية، فضلًا عن ألقاب أخرى، كالفاضل، وجمال الدّين، وشيخ الطائفة، وابن المطهر (الزركلي، 1992، صفحة 227). وقيل فيه شيخ الإسلام، المجتهد الأكبر، المتكلم الفذ، الباحث الكبير (السبحاني، 2022، صفحة 338). تتلمذ على يد والده الفقيه سديد الدين يوسف، وعن خاله شيخ الإمامية، المحقق الحلّي، والفيلسوف نصير الدين الطوسي المعروف بالخواجة. ويعرّفه معاصره أبو داوود الحلّي في كتاب رجال أبي داوود بقوله: «شيخ الطائفة، وعلّامة وقته، وصاحب التحقيق والتدقيق، كثير التصانيف، انتهت رئاسة الإمامية إليه في المعقول والمنقول» (الطباطبائي، 1363هـ، صفحة 291).

ولم يقتصر مدحه على علماء الشيعة فقط، وإنما أقر علماء المذاهب الأخرى له بالفضل، فقد قال فيه الصفدي: «الإمام العلّامة ذو الفنون، عالم الشيعة وفقيههم ... وكان يصنف وهو راكب... وكان ريض الأخلاق، مشتهر الذكر... وكان إماما في الكلام والمعقولات« (الصفدي، صفحة 85). كما قال ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان: »عالم الشيعة وإمامهم ومصنفهم، وكان آية في الذكاء... وكان مشتهر الذكر، حسن الأخلاق» (العسقلاني، صفحة 317). كما عرّفه أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، في كتابه النجوم الزاهرة الجزء التاسع، بأنّه «شيخ الرافضة»، قائلًا: «كان عالماً بالمعقولات، وكان رضيَّ الخلق حليماً» (المطهر، 1414 هـ، صفحة 30).

1.2. تلامذة العلّامة

ترك العلّامة رصيدًا ضخمًا على المستوى التربوي إذ أنه أخرج عددًا كبيرًا من رواد العلم في المنقول والمعقول. في الحقل الأول في الفقه والأصول، تخرج عليه علماء كبار منهم على سبيل المثال لا الحصر: ولده فخر المحققين الذي تولى الزعامة الشيعية الجعفرية بعد وفاة والده العلّامة، وزوج أخته مجد الدين أبو الفوارس محمد بن علي بن الأعرج الحسيني، والحسين بن إبراهيم بن يحيى الاستر آبادي. أما في حقل المعقول والكلام، فيُذكر من تلاميذه محمد بن محمد قطب الدين أبو عبد اللّه الرازي الذي اشتهر بالمنطق وشروحاته، مصنف كتاب «تحرير القواعد المنطقية في شرح الشمسية ولوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار والمحاكمات». ولا بد من الإشارة إلى أنّ صيت العلّامة قد ذاع في الحوزات العلمية حتى أن الشيخ محمد بن مكّي، المعروف بالشّهيد الأوّل كان ممن هاجر من جبل عامل، لبنان، إلى الحلّة ليقرأ على العلّامة، لكنه كان قد توفّي، فقرأ على ولده فخر الدين تيمّنًا وتبرّكًا (الأمين، م. 2000، م 5، ص 397)، المعروف بفخر المحقّقين (771)، محمد بن الحسن الحلّي (المختاري، 1395 هـ، صفحة 191).

1.2.آثار العلّامة ومصنفاته

تعد آثار العلّامة موسوعة كبيرة، فقد أغنت الدّراسات الفلسفية والكلامية تصانيفه، وكان صاحب مدرسة فكرية مؤثرة في حقلي التشريع والكلام. له مؤلّفات عديدة في علوم الفقه، وأصول الفقه، وتفسير القرآن، والحديث وعلومه، وعلم الرجال، وعلوم اللغة، والمنطق والفلسفة والكلام، حتى بلغ نتاجه الفكري المائة والعشرين مؤلّفًا (الأمين، م. 2000، م 5، ص 398)، وهو إرث ضخم يحيطه الاستغراب والإعجاب في آن معًا.

يُذكر من كتبه في الفقه تبصرة المتعلمين، وإرشاد الأذهان، وتحرير الأحكام الشرعية، وقواعد الأحكام، وهذه الكتب تؤلف معًا دورة فقهية كاملة. ويبرز في علم الكلام كأحد الرواد الأفذاذ، فهو صاحب كتاب «كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد»، علمًا أن كتاب «تجريد الاعتقاد» من أهم الكتب الكلامية للشيخ

الطوسي، ولأهمية شرح العلّامة للمطلب امتدحه الكثيرون حتى قيل فيه: «لولا شرح الحلّي لَمَا شُرح هذا المتن» (الصدر، 1981، صفحة 396)، بل إن الطوسي نفسه يعبّر عن مهارة العلّامة بقوله: «لولم يكن هذا الشاب العربي لكانت كتبي ومقالاتي في العلوم كبخاتي خراسان غير ممكنة من السلطة عليها (الأسدي، 1413، صفحة 48)، والبخاتي تعني الإبل. وهو نفسه الذي وصف العلّامة بالعالِم، إضافة إلى موسوعة العلّامة الكلامية الرائدة تحت عنوان «نهاية المرام»، والعديد من المؤلفات الأخرى.

وكما يظهر علوّ شأنه في الفقه والأصول والكلام، تتجلى عبقرية أعماله الأخرى في المنطق والفلسفة، منها رسائل قصيرة مؤلفة من أجل التعليم كـ «نهج العرفان في علم الميزان»، و«النور المشرق في علم المنطق»، ومنها ما يشتمل على العلوم الثلاثة: المنطق والطبيعيات والإلهيات، كـ «مراصد التدقيق ومقاصد التحقيق»؛ «القواعد والمقاصد»؛ «الأسرار الخفيّة في العلوم العقليّة»؛ «تنقيح الأبحاث في العلوم الثلاثة»؛ وغيرها مما كتب في نقد بعض الحكماء الكبار من السلف، أو تلخيص قسم المنطق بتمامه من كتاب «الشفاء» لابن سينا، إضافة إلى شروح على كتب السلف، مثل كتاب الإشارات والتنبيهات (تراث الحلة، 2018، www.facebook.com/permalink.php).

بيد أن تميّز العلّامة وفرادته دفعا العلّامة إلى استثمار نشأته الفكرية والأحداث والتّطورات التي عاصرها في رسم سيرته الفكرية، وطبع حياته الفكرية بطابع مميّز، وإلا فإن وجود العوامل وحدها ليست كافية ما لم يحضر من يطوّع هذه العوامل، فالقانون، مثلًا، دون القيّم عليه يصبح بلا فائدة، تمامًا كما أن عوامل القيام بالثورة تبقى مجرد تصور تجريدي ما لم يتصدَّ أحدهم للقيادة ويأخذ بزمام الثورة.

3. دور العلّامة الريادي في ازدهار الفكر الإمامي

تعدّ اللمحة البسيطة التي وردت مجحفة بحق العلامة؛ مجحفة لأنها مقتضبة جدًا، ولكن يحيل البحث القارئ إلى المكتبة الإلكترونية الخاصة بمؤلفات العلّامة ليقف على جهبذته في كل التصانيف. الشاهد الذي يقف عنده البحث من خلال هذه الإطلالة هو التعريف بالعلّامة بما يساعد بفهم المهام الذي أخذه العلّامة على عاتقه

في حماية الدين المحمدي الأصيل، والتصدّي للمذاهب الأخرى خوفًا من اندثار المذهب الشيعي، وهو ما يؤكده كلام الشيخ البهائي بقوله: »الشّيخ العلامة... كان حامي بيضة الدّين، وماحي آثار المفسدين، متمّم القوانين العقليّة، وحاوي الفنون النقليّة، مجدّد آثار الشّريعة المصطفوية، محدِّد جهات الطّريقة المرتضويّة« (فضل اللّه، 2014، http://arabic.bayynat.org.lb).

1.3.تطويع العلّامة العلوم العقلية في نشر العلوم النقلية

لقد عايش العلّامة انتشار آراء ومعتقدات المذاهب الأخرى التي كان يعمل مختلف العلماء على الترويج لها بغية استقطاب ملوك المغول الذين دخلوا بالإسلام لاعتناق مذهبهم دون سواه.وقد عاصر العلّامة السلطان «أولجايتو» محمد الملقب بالشاه «خدابنده»[1]، الذي كان متقلبًا بين الحنفية والشافعية إلى أن نفرَ من كلا المذهبين لما اتسمت به المناظرات فيما بينهم بالجدل العقيم وتكفير بعضهما وتبيان كل منهما ما في المذهب الآخر من مساوئ. وقد اعتنق الشاه «خدابنده» المذهب الشيعي (707هـ/ 1303م) على يدي العلّامة الذي استثمر مشكلة الطلاق -التي أرسل الأول وراء الثاني ليجد له حلًّا لهذه المعضلة بعدما انقطعت السبل بالعلماء الآخرين- لينشر أحقيّة المذهب الشيعي دون غيره، ويفحم علماء المذاهب الأخرى بالعقل والمحاججة المنطقية، ويقنع الملك بذلك، وليس مجرد أن يستميله.

إن هدف العلّامة لم يكن مجرد أن يعطي الملك حل مشكلة قول الرجل لزوجته «أنت طالق» ثلاث مرات دفعة واحدة بلا شهود، أو أن يعطي الفتيا وفق المذهب الشيعي ويرجع من حيث أتى، أو حتى أن يستميل الملك بموافقة فتيا المذهب الشيعي لهواه. إن هذا توهين لجهد العلّامة. إن التدقيق في قصة الطلاق المروية يختزن براعة العلّامة في تطويع علومه العقلية وفطنته وبراعته في نشر العلوم النقلية.

بمعنى آخر، لقد ابتكر العلّامة حدثًا في كيفية الدخول وطريقة الجلوس في

---

(1) أصل هذه الكلمة (أولجايتو خربته) ومعناها: السّلطان الكبير المبارك، بحسب اللّغة المغولية، وهو حفيد هولاكو. لكنه اشتهر في أغلب المصادر بلقب (خدابنده). (الأمين، م. 2000، م 5، ص 295).

محضر «الخدابنده»[1]، بما يثير التساؤلات والشكوك تمامًا كما أراد العلامة، حتى يصار إلى محاججة العلماء الحاضرين المجلس، وإفحامهم بالأدلة العقلية والنقلية في إبراز أحقية المذهب الشيعي. إن الإعجاب الذي أثاره العلّامة في هذا المجلس دفع بالملك لإحضار أعظم علماء المذهب الشافعي الذي ينتمي إليه الملك لمناظرة العلّامة، فكانت أدلة العلّامة وبراهينه القاطعة سبب اعتناق «الخدابنده» المذهب الشيعي، بل وإعلان المذهب الشيعي المذهب الرسمي في البلاد، حتى أنه أمر بضرب السكة بأسماء الأئمة (الأمين ح.، 1993، صفحة 353)، وأمر بكتابتها على المساجد والمشاهد. وتعززت مكانة العلّامة الحلّي عند السلطان وأجرى بخدمته «المدرسة السيّارة» تنتقل معه في أنحاء البلاد، حتى يخطب ويعلم ويدرس ويؤلف أينما كان في رحلاته وأسفاره الكثيرة.

1.3. تطويع العلّامة السلطة السياسية في خدمة المذهب

إنّ تتبع المزيد حول العلّامة وعلومه ونبوغه يكشف أنّه لم يطوّع فقط علومه العقلية وبراعته المنطقية بغية إيصال العلوم النقلية بطريقة تقنع الخصم وتردّه عن ادعاءاته وتقنعه بأحقية مذهبه، وإنّما عمل العلّامة على تطويع السلطة أيضًا في خدمة حفظ

---

(1) بعث السلطان وفداً وأحضر العلاّمة الحلّي.. وحدد له موعد اللقاء وجمع علماء المذاهب لحضور المجلس، وكان من مراسم البلاط أن الداخل على السلطان ينحني له أو يقبل الأرض بين يديه.. إلا أن العلاّمة الحلّي لم يفعل ذلك.. فحين قدم ودخل البلاط أخذ نعليه بيده ورفع يده بالتحية قائلًا: (السلام عليكم). ثم جلس إلى جانب السلطان.. ولم يكن هذا قد رآه قبل الآن.. مما أثار عجبه واستغراب الآخرين.. فاستغل علماء المذاهب ذلك وقالوا للسلطان: ألم نقل لك أنهم ضعفاء العقول. فقال السلطان: اسألوه عن كل ما فعل. فقالوا للعلامة الحلّي: لماذا لم تخضع للسلطان بهيئة الركوع وتركت الآداب؟! فأجابهم: إن رسول اللّه ﷺ كان سلطاناً وكان يسلم عليه ولم يكن يركع له أحد. واللّه تعالى يقول: (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند اللّه مباركة طيبة) ولا خلاف بيننا وبينكم: إنه لا يجوز الركوع والسجود لغير اللّه سبحانه وتعالى. قالوا: فلم جلست عند السلطان؟! أجاب: لأنه لم يكن مكان خال غيره...قالوا: فلم أخذت نعليك بيدك وهو أمر مناف للآداب؟ أجاب: خفت أن يسرقه بعض أهل المذاهب كما سرقوا نعل رسول اللّه ﷺ. قالوا: إن أهل المذاهب لم يكونوا في عهد رسول اللّه ﷺ بل ولدوا بعد المائة فما فوق من وفاته ﷺ! فالتفت العلاّمةالحلّي إلى السلطان وقال له: قد سمعت اعترافهم هذا... ولد أئمتهم بعد مائة عام فما فوق من رحيل الرسول ﷺ، فمن أين جلبوا مذاهبهم؟ ولماذا الاجتهاد فيهم ولم يجوزوا الأخذ من غيرهم ولو فرض أنه اعلم؟! فتساءل السلطان بدهشة كبيرة: ألم يكن أحد من أصحاب المذاهب في زمن النبي ﷺ؟! قال: لا... ولم يكونوا حتى في زمن الصحابة.. ونحن نأخذ مذهبنا عن علي بن أبي طالب نفس رسول اللّه ﷺ وأخيه وابن عمه ووصيه وعن أولاده من بعده.

علوم المذهب الشيعي ونشرها وتجديدها. لقد استثمر العلّامة قربه من «الخدابنده» والحظوة التي أعطاه إياها الملك، لكنها لم تكن علاقة من النوع الاستغلالي النفعي المادي طمعًا بالجاه والسلطان. وإذا ما قيّم الفعل بناء على تقسيمات الفعل الاجتماعي لدى عالم الاجتماع ماكس فيبر (Weber)، فإنه فعل يجمع ما بين الفعل العقلائي الغائي والفعل العقلائي القيمي دون أي تناقض بينهما. فهو فعل مبني على المنطق والعقل وهادف باتجاه غاية محددة لكنه فعل يختزن معنى قيميًّا وليس مصلحة مادية تجيز مختلف الوسائل على أنواعها.

إن طبيعة العلاقة تظهر جليًّا في استثمار العلّامة لوجوده في المجالس السلطانية لمناظرة علماء المذاهب الأخرى، وفي انشاء ما عرف بالمدرسة «السيارة»، وذلك بطلب من العلّامة نفسه، وهي كانت أشبه بالفسطاط أو الخيمة يرتادها العديد من أهل العلم وغيرهم، أينما حلّ العلّامة في سفراته مع «الخدابنده» أو لوحده، إما لأجل النهل من علوم العلّامة أو للنيل منه ومنها. يُضاف إلى ذلك دليلان آخران: الدليل الثالث هو شهادة العلماء بأن العلّامة كان يؤلف وهو «راكب»، مما يعكس مدى اهتمام العلّامة بتوثيق ونقل علوم أهل البيت والاستفادة من كل لحظة تؤمن له فيها سلطة السلطان إبراز سلطته كفقيه، أما الدليل الرابع فيظهر في غزارة نتاج العلّامة الذي يفوق التصور العقلي الطبيعي في العدد، والمركّز على النتاج العقائدي في الإمامية، تحديدًا.

لقد قضى العلّامة حياته في عصر كثرت فيه البدع والدسائس، وكانت إيران حتى بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي تدين بالمذهب الشافعي ومن ثمّ الحنفي. في تلك الحقبة، انبرى الشيخ ينشر المذهب الشيعي في إيران بالدليل والبرهان، كما راح يؤلّف ما يحفظ المذهب في كل لحظة، حتى وكأنه كان يسابق عصره. وقد قاد الحملة الفقهية الشيعية مقابل ابن تيمية، كبير فقهاء الحنابلة في حينها (كوثراني، 1989، صفحة 35، 36).

ولا يخفى على عاقل ما للتدوين من أثر على حفظ المذهب أولًا، وعلى الحكم ثانيًا، إذا ما تمّ الأخذ بعين الاعتبار مرافقة «الخدابنده» للعلّامة. ولا بد من الإشارة إلى تعمّد البحث كتابة لفظ» الخدابنده» قبل لفظ» العلامة»، لأن مركز الأول كسائر

الملوك لطالما احتاج إلى تسويغ شرعي لحكمه، وهو الذي بيده تعيين الشخصية التي ستدعم سلطانه، وبيده إقالته، أما الثاني فإنّه لو لم ينجح في نيل الثقة، لم يكن «الخدابنده» ليقرِّبه منه. ولطالما كانت السلطة السياسية تحتاج السلطة الدينية لإضفاء الطابع الشرعي عليها.

وعليه، يتّضح أنّ «الخدابنده» وجد ضالته في شخص العلامة، وهي أكثر من مجرد الحصول على الغطاء الشرعي اللازم له، بدليل أنه كان يأخذ العلّامة معه في أسفاره ورحلاته، بل إنه لم يفارقه على مدى تسع سنوات حتى وفاته (707 ـ 716هـ/ 1307ـ 1316م)، وهو ما يشير إلى أنّ العلّامة استطاع أن يحدث فارقًا حقيقيًّا عبر علاقته بالملك. ويجدر القول، إن المؤكد منه بالحدّ الأدنى أن العلّامة طوّع هذه العلاقة لما فيه مصلحة المذهب بدليل أنه رأى في السفر والترحال محطة للتداول بالعلم المحمدي الأصيل ونشره، فكان أن طلب المدرسة «السيارة» السلطانية التي شهدت نتاج عدة كتب ورسائل خاصة لـ «الخدابنده» تتحدث حول أصول الدين وإثبات إمامة أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، خاصة.

يُذكر من هذا النتاج ـللتعرف على ما جاد به الشيخ في سبيل تحقيق هدفهـ كتاب «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» وكتاب «الألفين الفارق بين الصدق والمين». وقد ألّف العلّامة كتاب «منهاج الكرامة» للسلطان، ويعد كتابًا كلاميًّا عقائديًّا يشير إلى جميع المسائل لا سيما مسائل الإمامة التي يثبتها العلّامة بأدلة قوية. لقد كان هذا الكتاب على قدر من القوة اثارت حفيظة ابن تيمية، حتى وصل بالأخير الأمر أن يكتب عليه ردًّا أسماه «منهاج السنّة في رد منهاج الكرامة». أما الكتاب الثاني، فيشتمل على ألف دليل على إمامة الإمام علي بن أبي طالب، وألف دليل على إبطال شبهات الطاعنين، وقد طبع تحت عنوان «الألفين في إمامة أمير المؤمنين». كما تجمع رسالة «نهج الحق وكشف الصدق» أهم المسائل الكلامية ورؤوس المسائل الأصولية والفقهية.

لقد كان للعلّامة الأثر البارز في تصنيف الحديث على أربعة أقسام: الصحيح والحسن والموثق والضعيف، بغض النظر عن الاختلاف الواقع في تحديد الشخصية التي قامت بتقسيم الأحاديث ابتداءً: العلّامة أو أستاذه ابن طاووس (ت 673هـ/

1274م) (عوض، 2013، صفحة 199). الشاهد أن اعتماد هذا التصنيف من قِبل العلّامة شطر الفكر الإمامي إلى قسمين: الإخباري والعقلي. والأخير هو القسم الأصولي الذي سار العلّامة فيه وفق تصنيفات الحديث الأربعة، ومَن تبعه من العلماء الأصوليين، حتى يومنا هذا. ويُذكر للعلّامة إسهامه في تنشيط علوم الفقه المقارن، أيضًا، نتيجة تتبع أصول الفقه السنّي لمعرفة أدلة الخصم ومقارنتها ودحضها.

بالمحصّلة، يبدو دور العلّامة في ازدهار الفكر الإمامي أساسيًّا لجهة التنوّع في المواضيع والتجديد في الطروحات والأساليب والوفرة في التأليف. وتبدو ريادة العلّامة في تطويع السلطة السياسية لخدمة السلطة الدينية حفظًا ونشرًا وتطويرًا أو تجديدًا للفكر الإمامي.

4. مساهمة العلّامة في الإجابة عن إشكالية الفقيه - السلطان

انطلقت حوزة الحلّة على مدى ما يقارب الأربعة قرون في مسيرة تنشيط الحركة العلمية بعد نكبة بغداد، وبقيت المركز العلمي للطائفة الشيعية خلال تلك الفترة، حيث عايشت عصر الازدهار الفكري للمذهب الإمامي. فقد عملت على بلورة الفكر الإسلامي على أسس ثقافية عقائدية متينة، وتميّزت في بحوث الفقه الاستدلالي، وافتتحت مع ابن إدريس (ت 598هـ/ 1202م) عهدًا جديدًا في الفقه الإمامي. وكما أخذت الحوزة على عاتقها المسؤولية في الميدان العلمي، تحمّلت مسؤولية الميدانين الاجتماعي والسياسي، فتابعت الواقع السياسي (قاسم، 2016، صفحة 11)، ولعبت دورًا هامًّا على صعيد التأثير في التاريخ السياسي الشيعي.

1.4. مدرسة الحلّة واختراق الجمود الفقهي

يشكّل بداية عهد مدرسة الحلّة حدًّا فاصلًا في الصراع بين الجمود والتقليد في تاريخ الفقه الشيعي، وبداية محاولات إزالة الجمود الفقهي والأصولي في الفكر الإمامي، وتجاوز الفكر التقليدي. وقد ساهم العلّامة الحلّي في عملية التجديد التي طالت حوزة الحلّة بعد شيخ الطائفة، الشيخ الطوسي (385 ـ 460هـ/ 995 ـ 1068م)، والتي بدأت مع ابن إدريس. فالعلّامة هو ابن مدرسة الحلّة، التي تحوّلت إلى منهج في

السلوك العقلاني مع الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن المعروف بالمحقق الحلّي (602 ـ 676هـ)، وتجاوزت الكيان المرجعي الذي فرضه جيل الشيخ المفيد (ت 413هـ/ 1022م) والسيد المرتضى والشيخ الطوسي (الحلّي، م 1، صفحة 179)، وفتحت باب الاجتهاد، وخرقت أبواب فقهية كانت محكمة الإغلاق، كالجهاد وصلاة الجمعة وإقامة الحدود.

ويعدّ العلّامة أحد المساهمين البارزين في وصول الحوزة الحلّية إلى مرحلتها الذهبية في تجديد الفكر الإمامي في الفقه والأصول إلى جانب كل من المحقق الحلّي (602 ـ 676هـ/ 1205 1277 ـم)، وفخر المحققين (ت 726هـ/ 1326م)، ابن العلامة. لقد دخل العلّامة عمليًّا في عملية تطوير الفكر الإمامي سواء بشكل عام، كما تبيّن سابقًا خلال سياق البحث، أو بشكل خاص على مستوى الفقه السياسي، والذي ترجمه طوال فترة علاقته بالسلطان المغولي «خدابنده». ولا تتناقض هذه النتيجة مع ما اشتهِر عن العلّامة والمحقّق عن معارضتهما لابن إدريس في الخروج على نظريات الشيخ الطوسي مع الأخذ بعين الاعتبار حيثيات وتفاصيل المسائل المختلف حولها من جهة ـ وهي مجال اختصاص أهل العلم ـ والتجرّد بالحكم عند مساءلة خروج المسار الفقهي من دائرته التي احتجزه الفكر الشيعي فيها على مدى قرن كامل، ما بعد عصر الغيبة.

يفيد تتبّع البحث لأعمال العلّامة واستقراؤها بهذا الإيجاز الكشف عن مساهمته في الدفع بإشكالية السلطة التي شغلت الإمامية في عصر الغيبة الكبرى قُدمًا بحثًا عن إجابة شرعية السلطة من غصبيتها. لقد شكّل العلّامة الحلّي بتواصله مع السلطة المغولية حلقة وصل قوية حافظت على النسق الفقهي الأصولي الذي يحتّم مع التطور التاريخي الوصول إلى الترجمة العملية لمصطلح «الزعيم»، زعيم الشيعة أو زعيم الحوزة أو زعيم الطائفة الذي كان يطلق على كل من الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي. فالمرجعية التي سعى فقهاء الإمامية إلى تركيزها تتجاوز مقام الفتوى إلى مستوى قيادة الساحة وإدارة شؤونها، أما ترجمتها العملية فهي نظرية ولاية الفقيه التي طرحها الفقهاء القدامى وقبِلها السابقون واللاحقون على اختلاف القول بحدودها أو أدلتها.

1.4.العلّامة الحلّي وتطوّر الفقه السياسي

لقد أقام العلّامة علاقة مع السلطان المغولي على مدى تسع سنوات، وهي فترة زمنية ليست أبدًا بالقصيرة. تاليًا، فإنّ العلّامة كان يمتلك المسوّغ الشرعي الذي استند إليه للتعامل مع السلطان في ظل غصبية الخلافة، تمامًا كما اعتمد ذلك قبله الشيخ الطوسي عندما كان وزيرًا للسلطان المغولي هولاكو. ومثلما تعدّ مناصحة الشيخ الطوسي، صاحب المنزلة والقدر في عهد هولاكو، لعلماء الحلّة لتحصيل الأمان من البطش المغولي وحفظ المدينتين المقدستين تدخّلًا سياسيًّا، في الحد الأدنى من توصيف الفعل، فإنّ العلّامة الحلّي لم يفتقر للتدخل السياسي أيضًا، إذ إنّ إثبات الإمامة وأحقيتها في الكتب التي كتبها العلّامة خصيصًا للـ «خدابنده» تتطلب شرح منصب الإمامة ودلالتها القيادية في إدارة شؤون الدولة والأمة.

إن عمل العلّامة الثقافي في ظل غصبية السلطة يجسّد الموقف الشرعي للعلّامة من السلطة السياسية في غيبة الإمام المعصوم. وإن تجربة عمل العلّامة الميداني مع السلطة الغاصبة تجيب عن إشكالية علاقة الفقيه- السلطان في عصر الغيبة الكبرى. فالعلّامة عندما أجاز لنفسه العمل مع السلطان يعني أنه أعطى تصريحًا ضمنيًّا بشرعية السلطان الحاكم غير الإمام المعصوم. أما تسويغ الشرعية في ذلك الوقت كان بدائيًّا، إن صحّ التعبير، أو ابتدائيًّا تمهيديًّا لشرعية مستمدة من شرعية الفقيه نفسه. وقد تجاوز العلّامة نصوص الفقهاء الأوائل في التسليم لسلطة الحاكم الغاصب للولاية مع عدم وجوب إقامة سلطة؛ الرؤية التي كانت حاكمة على الموروث الفقهي الشيعي.

وبعدما كانت رسالة السيد المرتضى، «رسالة في العمل مع السلطان»، تجيز للعلماء الشيعة الدخول في السلطة الغاصبة لكن دون التعرّض لفقه اقامة الحدود وإعلان الجهاد والأموال وصلاة الجمعة؛ شكّلت كتب العلّامة نقطة تحوّل في الفكر الإمامي. فقد ساهمت في تأسيس الفقه الشيعي، فضلًا عن دورها في تأصيل الاجتهاد المرتبط بتطور الفقه السياسي، ما انعكس لاحقًا في التنظير السياسي. إن المنهج الأصولي العقلي الاجتهادي الذي طوّره العلّامة وساهم في تجديده دفع الفكر السياسي الإمامي باتجاه التطوّر؛ المسار الذي ابتدأه ابن إدريس الحلّي لما أعطى

صلاحيات الإمام المعصوم للفقيه (السيف، 2002، صفحة 105). وقد ظهرت بوادر هذا التطوّر في تجربة الشهيد الأول، محمد بن مكي بن محمد بن حامد بن أحمد الجزيني العاملي (720هـ/ 1320م) الذي دخل الحلّة، وكانت في أوج مجدها العلمي (المهاجر، 1989، صفحة 58)، لكنه وصلها بعد وفاة العلّامة، فقرأ على تلميذ العلّامة، ابنه فخر المحققين، ونال إجازته منه (المجلسي، 1983، الصفحات 176 - 178).

يمثّل الشهيد الأول خطوة فقهية نوعية باتجاه منح الفقيه صلاحية الولاية السياسية على المستوى النظري، وأسبقيته بالقول بولاية الفقيه العامة بوضوح يتجاوز سابقيه، فذهب إلى وجوب الاجتهاد على من لديه القدرة وأوجب على العاجز التقليد. ولعل تجربة الشهيد الأول في التنظير لولاية الفقيه العامة مع البقاء خارج الحيز السلطاني وشواغله خير دليل على ما في نفس النص الفقهي من مضامين سياسية وقابليات لتأسيس دور سياسي للفقيه، بغض النظر عن ظروف الواقع ومجرياته وتأثيره على العلاقة مع السلطة القائمة الراهنة والسلطان. ويمكن القول إنها ظاهرة خارج الصورة العامة الحاكمة على تطور الموقف الفقهي لدور الفقيه بعدما عنى الفقهاء الأوائل من تنظيراتهم حدّ التسليم بسلطة غير شرعية، مع بعض الأحكام الفقهية (إبراهيم، 1998، صفحة 85).

1.3.دينامية الفقه السياسي

إنّ نواة المشروع السياسي التي حملها الشهيد الأول معه من حوزة الحلّة إلى جبل عامل ظهرت في مشروع الشهيد النهضوي في منطقة جبل عامل، وسيطرت على حوزة جبل عامل لقرنين. وإذا كان الشهيد الأول افتتح مرحلة النص الفقهي السياسي رغم عدم اتساق الأخير وانسجامه، فإن الدور السياسي للفقيه ظهر أكثر تطورًا ودقة وصراحة مع تجربة الشيخ الكركي، نور الدين علي بن عبد العالي الكركي (870 – 940هـ)، تلميذ تلامذة المدرسة الحلّية، والمعروف بالمحقق الكركي، أو المحقق الثاني. لقد فتح الشيخ الكركي المجال السياسي أمام الفقيه على مصراعيه في ظل الدولة الصفوية في القرن العاشر الهجري.

شكّلت تجربة المحقق الكركي قفزة في التفكير السياسي الشيعي كأهم عملية

سياسية نشأت بين الفقيه الكركي والسلطان طهماسب الصفوي الذي جعل الأول إمامًا دينيًّا، ولقّبه بـ «نائب الإمام المهدي» بهدف الحصول منه على إجازة شرعية لحكمه (مطهري، 2012، صفحة 338). وقد أثارت علاقة الكركي بالسلطان جدلًا بين العلماء، ومنها السجالات بين المحقق الكركي والشيخ إبراهيم القطيفي (ت 950 هـ). لقد خرج الكركي عن المألوف؛ وفتح الباب أمام فكرة ولاية الفقيه، وبعدما كانت الشرعية مسلوبة عن كل ولاية في غياب المعصوم، صار الفقيه المأمون الجامع للشرائط بمثابة النائب المنصّب من الإمام المهدي. وتاليًّا، فهو الذي يعطي للحاكم شرعية حكمه (الكركي ع.، 1408هـ، صفحة 37، 47، 370، 489).

وإذا ما قورنت تجربة العلّامة مع تجربة المحقق علي الكركي لظهرت كلا التجربتين إيذانًا بشرعية السلطان الحاكم، وإلا كيف أمكن للفقيه العلّامة أو المحقق الثاني أن يعمل بسلطة مغصوبة؟ ويبدو الفارق أنّ التجربة الأولى جاءت إيذانًا ضمنيًّا ومحطة تمهيديّة للتجربة الثانية التي ظهرت واضحة في تطوير مجال التسويغ لعمل الفقيه السياسي في السلطة الغاصبة مع عدم إمكانية قيام السلطة الشرعية.

ولمّا كان التاريخ يحكمه التطور الحتمي، والمجتمعات يحكمها الحراك وعدم السكون، تطوّرت بدورها تجربة الكركي، لاحقًا، لتؤسس لشرعية سياسية تجيز تدخل العلماء في السلطة والسياسة، بل وكسر الحاجز الذي كان بين الفقيه والحاكم في الفقه الإمامي. وبالنتيجة، مارس الفقيه أدوارًا سياسية حتّم الواقع المفروض والأوضاع الاجتماعية التدخّل فيها، وأفضى المزيد من التجديد في الفقه إلى أن تتجاوز المرجعية تفكيكها الظاهري النظري مع الولاية، وتتّحد عمليًّا معها. وتزخر شواهد التاريخ، مذّاك، حتى يومنا بتجارب عديدة تعزز سلطة الفقيه السياسية فضلًا عن سلطته الدينية.

ولعلّ أبرز المحطات التي تعكس تنامي نفوذ السلطة الدينية في مقابل السلطة السياسية في العصر الحديث، لاسيما في القرنين الماضيين، هي التالي على سبيل المثال لا الحصر: فتوى المرجع محمد حسن الشيرازي (1230 ـ 1312هـ) بتحريم التبغ استخدامًا وبيعًا فيما عرف بحركة التنباكو، التبغ (1889م) (السيف، 1999،

صفحة 29) والحركة الدستورية (1905م) التي نظّر لها شرعيًّا الشيخ محمد حسين النائيني (1276 ـ 1355هـ) (النائيني، 1419هـ، الصفحات 53، 64 ـ 66، 99 105ـ، 180)، وثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني في العراق، وتجربة الثورة الإسلامية (1979م) التي أفرزت ذروة سلطة الفقيه من خلال تطبيق نظرية ولاية الفقيه العامة عمليًّا في الحكم مع الإمام الخميني (ت 1989م) وإقامة الحكومة الإسلامية في إيران.

إنّ مرونة الفكر الإمامي وديناميكيته في الفقه والأصول أوصلت الفكر الإمامي إلى أعلى مراتبه مع استلام الفقيه أعلى منصب في الحكم في التجربة الإيرانية، إلا أن ذلك لم يكن ليحول دون تطور الفقه السياسي الشيعي في مجتمعات أخرى. فقد شهد العراق، على سبيل المثال، في بداية القرن العشرين تجربة رائدة في ممارسة الفقيه سلطته في مقابل السلطة السياسية الحاكمة. وقد تمثّلت هذه التجربة في فتوى المرجعية الرشيدة للسيد السيستاني التي اقتضت انشاء قوات الحشد الشعبي (1914م)، ووجوب الدفاع عن المدن المقدسة، كربلاء والنجف، وحمايتهما من التهديد التكفيري الذي أراد بسط دولة الخلافة في العراق والشام، وهو ما اختزِل اسمه، وجمّعت أوائل حروفه فيما عرِف بـ «داعش».

وتعدّ فتوى المرجعية في العراق علامة فارقة في تاريخ تطور الفكر الإمامي حديثًا في العراق، فقد أثبت التفاف الشعب العراقي حول الفتوى، واتحاد كافة الأطياف تحت لوائها قدرة الفقيه الشيعي على تجاوز السلطة السياسية من جهة، وقدرته على التعبئة والحشد اللازمين ليس فقط لحفظ الدين، بل لحفظ البلاد، أيضًا. لقد عبّرت الفتوى عن اندكاك سلطة الحوزة الدينية بمرجعيتها في ولاية الأمور السياسية والدنيوية بأعلى مستوياتها على صعيد الفقه السياسي؛ الجهاد الدفاعي.

تاليًّا، تعبّر هذه التجربة السياسية الحديثة العهد في العراق عن بارقة تجديد في الفكر الشيعي لدى المرجعية في العراق، وبارقة أمل لمزيد من النتاج السياسي الذي يؤكد حضور المذهب الإمامي كإيديولوجيا سياسية مؤثرة في الحياة، مع ضرورة البقاء داخل نسق النتاج الفكري الشيعي المتراكم في عملية زيادة الوعي الثقافي، وإعادة تأهيل الأدوات العلمية والمعرفية.

خلاصة البحث وتوصيات

واجه الفقه الشيعي في إجابته عن إشكالية علاقة الدين بالسلطة عدة مخاضات في مجال تطور الفقه السياسي حتى أوقف اغتراب الزمن السياسي الشيعي، وأسس السلطة الدينية السياسية الشرعية في عصر الغيبة، متجاوزًا انزواء السياسة «الشيعية» في طيّ العلاقة مع السلطان إلى ضرورة وجوب إقامة السلطة. وقد ساهمت مدرسة الحلّة في ريادة الفكر الإمامي وتأسيس الفقه السياسي الذي خرج عن الموروث الفقهي التقليدي. وقد كان للعلّامة الحلّي دورًا كبيرًا في مسار البحث عن إجابة إشكالية الفقيه ـ السلطان.

إنّ تتبّع علاقة العلّامة الحلّي بالسلطة الإيلخانية المغولية واستقراء نصوصه الاجتهادية الفقهية يشيران إلى سعيه لبناء ممارسة سياسية واقعية تنطلق من الضروريات العامة لحماية المذهب الشيعي، وتأمين الاستقرار العام، ودفع المفاسد. وتدلّ غزارة انتاجه الفكري والاجتهادي إلى جهده في تكريس النسق الفقهي الرافض للانعزال والانتظار السلبي والمتطور باتجاه التعاطي الواقعي مع حيز السلطة، وذلك عبر اتجاهين:

الأول: حفظ المذهب ونشره وتطويره؛ فاستفاد العلّامة من فطنته وقربه من السلطان المغولي محمد «خدابنده»ـ والذي تشيّع على يدي العلّامةـ لإثبات أحقية المذهب الشيعي بما تشكّل الإمامة الركن العقائدي الأساس الذي تنطلق منه علاقة الفقيه بالدولة. كما سعى لنشر المذهب عبر إحياء الاتجاه العقلي، وبناء أصول المذهب على أسس عقلية منطقية في محاجة المخالفين، ومناقشة آراء الخصوم من المذاهب الأخرى لدحضها وتوهينها، فضلًا عن استقطاب الوافدين من العلماء الفقهاء لاسيما من مدرسة بغداد، وإقامة المراكز العلمية وخصوصًا المدرسة «السيّارة». وقد ساهمت هذه الآليات مجتمعة في ازدهار مدرسة الحلّة وريادتها وبروز العلّامة كمَعلم أصيل من معالم الفكر التأسيسي الإمامي.

الثاني: تثبيت صلاحيات ولائية للفقيه بطريقة عملية ترجمتها قربه من السلطان ومؤلفاته العديدة في الفقه، وجهده في تطوير المنحى العقلي الأصولي وتثبيت ركائز

الاجتهاد. لم يحل عمل العلّامة داخل الحيّز السلطاني وشواغله دون تطويع السلطة السياسية الغاصبة في خدمة السلطة الدينية، كما طوّع العلوم العقلية في خدمة العلوم النقلية. لقد اجتهد العلّامة من خلال كتبه في الإمامية في تبيان صلاحيات الفقيه في النص الفقهي الشيعي محافظًا بذلك على نهج الفقهاء الأوائل.

لقد انعكس جهد العلّامة في تطوير الأصول وتثبيت المنحى العقلاني وتجديد الفقه على مفهوم الاجتهاد؛ فكان عامل تثبيت لهذه الصلاحيات وامتدادها التشعبي في مدرسة الحلّي وما حمله تلاميذها للأجيال اللاحقة. أما عمل العلّامة ضمن إطار السلطة المغولية مع غصبها لمقام الإمامة وعدم الخروج عليها، فقد كان لانعدام القابليات والتمكن والقدرة من ناحية، واستجابة للظروف السياسية والثقافية التي اقتضت حفظ الدين والمذهب بعد نكسة بغداد وانتشار المذاهب الأخرى، من ناحية ثانية. هذا الانخراط في السلطة كان تصريحًا ضمنيًّا بشرعية الفقيه التي تؤسس لشرعية الحكم في عصر الغيبة، وإلا ما كان ليعمل في سلطة غير شرعية وغاصبة.

وهكذا، ما برح العلّامة يفتح الطريق أمام موضعة الفقيه في سدّة الهرمية الشيعية بوصفه نائبًا عن الإمام الغائب، ويساهم في الإجابة عن إشكالية علاقة الفقيه بالسلطان من خلال تجاوز مفهوم العلاقة مع السلطان في رسالة الشريف المرتضى في كتبه الفقهية، والخروج عن منهج الطوسي في الاجتهاد من جهة، وترك إرث فقهي أصولي اجتهادي في مدرسة الحلّة نقلته تجربة الشهيد الأول إلى جبل عامل، وهو ما تطوّر بدوره لاحقًا في القرن العاشر مع المحقق الكركي الذي كان له قفزة سياسية نوعية في تطور الفكر السياسي الشيعي، ونيابة الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

وما زالت جهود العلّامة الحلّي ومساهماته التأسيسيّة في العصر الحديث تعكسها دينامية الفقه السياسي الإمامي في تعزيز سلطة الفقيه السياسية فضلًا عن سلطته الدينية، في صيرورة من التطور برزت في العصر الحديث، لا سيّما في القرنين الماضيين؛ بدءًا من فتوى المرجع محمد حسن الشيرازي (1889)، مرورًا بتجربة الثورة الإسلامية (1979) كمحطة مفصلية من خلال تطبيق نظرية ولاية الفقيه العامة عمليًّا في الحكم، وصولًا إلى تجربة العراق الرائدة، في بداية القرن العشرين، من خلال ممارسة الفقيه

سلطته في مقابل السلطة السياسية الحاكمة مع إصدار فتوى المرجعية الرشيدة للسيد السيستاني التي اقتضت انشاء قوات الحشد الشعبي (1914م). وتؤكّد مرونة الفقه السياسي الشيعي مع التجربة السياسية الحديثة العهد في العراق قابلية الفكر الإمامي للخروج من التنميطات التقليدية التي تفصل ما بين الفقه والسياسة في عملية تجديدية تعطي الفقه السياسي الشيعي حقّه في القدرة على تلبية متطلبات العصر ومواكبة التقدّم عبر تقديم إجابات عن تحديات العصر الراهنة.

وعليه، لقد بيّن البحث أنموذجًا ـ من نماذج عديدة في التاريخ الإسلامي الشيعي تحديدًا ـ كانت له مساهمة مميّزة في صيرورة التطوّر التاريخي للفقه السياسي الشيعي. وهذا النموذج وغيره بما يضفي من غنى معرفي وتأسيسي في الارتقاء بالمجتمعات الإسلامية ومواكبة حركة تطوّرها وفق رؤية سياسية إسلامية جدير بالدراسة والتحليل والاهتمام على كل المستويات. ولعلّ من الأهميّة بمحل إخراج هذه العلوم من مكامنها التاريخية ليس على المستوى الأكاديمي التاريخي الوصفي فقط، وإنّما باتجاه ميادين التحليل والفهم والتفسير في مختلف العلوم الاجتماعية بما يصقل العملية المعرفية في محاولة فهم المجتمع الإسلامي الحديث. أضف إلى ذلك ضرورة إطلاق هذه المعارف وتقديمها لأجيال الحاضر والمستقبل بطريقة جذابة تلبّي احتياجاتهم وتغذّي مداركهم بالاستفادة من مختلف المجالات الثقافية والفنية وبإمكاناتها المتاحة. فإنّ من الجريمة الكبرى بحق البشرية أن يجمّد التاريخ في الكتب والمدوّنات في الوقت الذي يجب فيه أن يصنع المستقبل.

المراجع العربية

الكتب

1. أبو القاسم الخوئي. (1410). التنقيح في شرح العروة الوثقى. قم: دار الهادي للمطبوعات.
2. أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي. (1413). قواعد الأحكام. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
3. أحمد بن حجر العسقلاني. (1988). لسان الميزان. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
4. أبو الراغب الأصفهاني. (2009). المفردات في غريب القرأن. بيروت: مؤسسة الأعلمي.
5. الحسن بن يوسف الحلي. (1416 هـ). مناهج اليقين. (تحقيق محمد رضا الأنصاري، المترجمون) قم.
6. الحسن بن يوسف الحلي. (1991). كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين. طهران: وزارة الثقافة.
7. الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر. (1414 هـ). منتهى المطلب في تحقيق المذهب (المجلدات 9ـ3). مجمع البحوث الإسلامية.
8. توفيق السيف. (1999). ضد الاستبداد، قراءة في الفكر السياسي الشيعي. المركز الثقافي العربي.
9. توفيق السيف. (2002). نظرية السلطة في الفقه الشيعي. بيروت: المركز الثقافي العربي.
10. جان وليام لابيار. (1983). السلطة السياسية. (الياس حنا الياس، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
11. جعفر المهاجر. (1989). الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي. بيروت: دار الروضة.

12. جعفر بن الحسن الحلّي. (بلا تاريخ). معارج الأصول (المجلد 1). مؤسسة آل البيت.

13. حسن الأمين. (1981). دائرة المعارف الإسلامية الشيعية (المجلد 12). بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

14. حسن الأمين. (1993). المغول بين الوثنية والنصرانية والإسلام. بيروت: دار التعارف.

15. حسن الصدر. (1981). تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام. بيروت: دار اللرائد العربي.

16. حسين المنتظري. (1988). دراسات في ولاية الفقيه أو فقه الدولة الإسلامية (المجلد 1). بيروت: الدار الإسلامية.

17. خير الدين الزركلي. (1992). الأعلام (المجلد 2). بيروت: دار العلم للملايين.

18. رضا المختاري. (1395 هـ). الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي. قم: مؤسسة تراث الشيعة.

19. روح اللّه الخميني. (بلا تاريخ). كتاب الطهارة (المجلد 3). قم: مطبعة مهر.

20. صلاح الدين الصفدي. (بلا تاريخ). الوافي بالوفيات (المجلد 13). مؤسسة الريان.

21. عبد الجبار الرفاعي. (2013). انقاذ النزعة الانسانية في الدين. بيروت: دار التنوير.

22. عبد الرضا عوض. (2013). الحوزة العلمية في الحلة، نشأتها وانكماشها الأسباب والنتائج (562ـ951 هـ). العراق: دار الفرات للثقافة والإعلام.

23. عبداللّه نعمة. (1987). فلاسفة الشيعة. قم: دار الكتاب الإسلامي.

24. عدنان فرحان آل قاسم. (2016). تاريخ الحوزات العلمية والمدارس الدينية عند الشيعة الإمامية. بيروت: دار السلام.

25. علي الكركي. (1408هـ). جامع المقاصد في شرح القواعد (المجلدات 2_3). قم: مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث.

26. علي بن الحسين الكركي. (1409). رسائل المحقق الكركي المجموعة الاولى. مكتبة آية اللّه العظمى المرعشي النجفي.

27. علي فياض. (2010). نظريات السلطة في الفكر السياسي المعاصر. بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

28. فؤاد إبراهيم. (1998). الفقيه والدولة، الفكر السياسي الشيعي. بيروت: دار الكنوز الأدبية.

29. محسن الأمين. (1986). أعيان الشيعة (المجلد 3/ 5). بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

30. محسن الأمين. (2000). أعيان الشيعة (المجلد 8). بيروت: دار التعارف للمطبوعات.

31. محمد باقر الإيرواني. (بلا تاريخ). كفاية الأصول في أسلوبها الثاني (المجلد 1).

32. محمد باقر المجلسي. (1983). بحار الأنوار (المجلد 107). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

33. محمد باقر المجلسي. (1983). بحار الأنوار كتاب الإمامة (المجلد 23). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

34. محمد حسين النائيني. (1419هـ). تنبيه الأمة وتنزيه الملّة. قم: مؤسسة أحسن الحديث.

35. محمد سبيلا. (1992). الأيدولوجيا نحو نظرة تكاملية. بيروت: المركز الثقافي العربي.

36. مرتضى مطهري. (1047). مبدأ الإجتهاد في الإسلام. (جعفر صادق الخليلي، المترجمون) طهران: مؤسسة البعثة.

37. مرتضى مطهري. (2012). إيران والإسلام. بيروت: دار الإرشاد.
38. مهدي الطباطبائي. (1363هـ). بحر العلوم. طهران: آفتاب.
39. وجيه كوثراني. (1989). الفقيه السلطان. بيروت: دار الراشد.
40. يوسف عبد الأمير طباجة. (2007). منهجية البحث تقنيات ومناهج. بيروت: دار الهادي.
41. يوسف كركوش. (1416 هـ). تاريخ الحلّة (المجلد 1). قم: منشورات الرّضي.

كتب ومقالات ومجلات من المواقع الإلكترونية

42. جعفر السبحاني. (آذار، 1997). كتاب رسائل ومقالات. تم الاسترداد من: http://shiaonlinelibrary.com/%D8%A7%D9%84
43. محمد حسين فضل اللّه. (417 ,2014). حياة العلامة الحلي ومسيرة العطاء. تم الاسترداد من: http://arabic.bayynat.org.lb/ArticlePage.aspx?id=11189
44. مجلة تراث الحلة. (4 , 2018). مجلة تراث الحلة. تم الاسترداد من: https://www.facebook.com/permalink.php?story-fbid=608358919553847&id=25724296466544
45. محمد واعظ زاده الخراساني. (1420). المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، الإجتهاد عند الشيعة. رسالة التقريب، العدد 26، موقع **إيران والعرب** الإلكتروني، على الرابط: http://iranarab.com/Default.asp?Page=ViewArticle&ArticleID=425

المراجع الأجنبية

46. Roger Scuton. (1982). Dictionary of political thought. london: macmillan press.

تطوّر دور المرأة في المجتمع العراقي

مشاركتها في مراسم أربعينية الإمام الحسين عليه السلام نموذجاً

د. حسن محمد إبراهيم(*)

الملخص

برعت المرأة العراقية بتأدية مهام جديدة واضطلعت بأدوار واسعة أثناء مراسم زيارة أربعين الإمام الحسين عليه السلام، مقارنة مع ما كانت عليه سابقاً، فقد تطوّر عملها منذ إسقاط نظام صدام حسين في العام 2003، وما زال حتى اليوم، وتماشت مع التطوّر العملي المستمر بالتوافق مع تطوّر أعداد الزائرين للعتبات المقدسة في العراق.

ولقد أثبتت المرأة العراقية أنها على قدر واسع من المسؤولية المهنية والشرعية في الوقت الذي تخضع فيه لتقاليد اجتماعية معقدة، لم تكن تسمح لها بممارسة نشاطات خارج المنزل على نطاق واسع، لا سيّما في الزيارة الأربعينية، وقد برعت بنشاطات واسعة الاختصاص والميدان.

Résumé en français

La femme iraquienne a excellé dans l'exécution de nouvelles tâches et a assumé de larges rôles lors des cérémonies Ziyarat Arbaeen de l'Imam Al-Hussein (PBUH), par rapport à ce qu'elle était auparavant L'évolution du nombre de visiteurs dans les sanctuaires sacrés en Iraq.

(*) دكتور جامعي في مادة التاريخ السياسي المعاصر وباحث سياسي واجتماعي.

La femme iraquienne a prouvé qu'elle avait un large degré de responsabilité et de légitimité professionnelle à une époque où elle est soumise à des traditions sociales complexes, qui ne lui permettaient pas de s'engager dans des activités extérieures à grande échelle, en particulier lors de la visite d'Arbaeen, et elle excellait dans des activités et des domaines diversifiés.

الكلمات المفتاحية

الزيارة الأربعينية، العراق، العتبات المقدسة، المرأة، عمل المرأة.

أهمية الدراسة وإشكاليتها

لا شك أن الدراسات والأبحاث العلمية تعطي معلومات هامة في مختلف مجالاتها، لا سيّما حينما تتعمق في الحديث عن كافة جوانب الموضوع موضع البحث.

تطلّ هذه الدراسة على موضوع حيوي في جانبين، الأول في ميدان الحديث عن المرأة بعامة من حيث المطالب الحثيثة بإظهار مقدرتها النفسية والفكرية والجسدية في ما يتعلق ببعض المهام الموكلة إليها، أما الجانب الثاني، فهو لا يقلّ أهمية عن الأول، إذ يدخل إلى المجتمع العراقي الذي ما زال حتى وقت قريب يحاذر عمل المرأة في الميادين العامة، لأسباب متعددة، أبرزها التقاليد الاجتماعية المحلية.

لقد حاولت الدراسة أن تبرز أهمية عمل المرأة العراقية في الميدان العام بممارستها بعض الوظائف في عدة مجالات إدارية وطبيّة ولوجستية وحتى الأمنية منها، من خلال المشاركة في مراسم زيارة أربعين الإمام الحسين عليه السلام التي تطوّرت يوماً بعد يوم، وهو ما كان مفقوداً حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين.

وفي هذا الإطار، تتمظهر إشكالية أساسية حول الموضوع، تتلخص بما يلي:

هل تنجح المرأة العراقية بتأدية أدوار عملية خارج المنزل، في ظلّ التطور العلمي والعملي الحاصل، في الوقت الذي تخضع فيه لاعتبارات اجتماعية معقدة، فيما ينظر الغرب إليها على إنها مسلوبة حقوقها الخاصة ويطرح نظرية تمكين المرأة؟

تمهيد

شهد المجتمع العراقي انفتاحاً غير مسبوق بدخول المرأة معترك الحياة الاجتماعية والسياسية بشكل واسع وكبير بعد أن كانت أغلب مهامها تقتصر على الأمور البيتية والعائلية لعدة أسباب، منها العادات والتقاليد الاجتماعية من جهة، ومن جهة ثانية بسبب إحكام الرجال على مقاليد القرار البيتي والعائلي ونفاذه إلى المجتمع العراقي بما يندرج في إطار العشائر والحكم الذكوري، ومن جهة ثالثة تنفيذاً لبعض أحكام الشريعة الإسلامية التي تفرض قيوداً على المخالطة بين الرجال والنساء في شتى ميادين العمل الاجتماعي المشترك.

لقد غابت المرأة العراقية بشكل كبير عن الميدان الاجتماعي والسياسي، وعلى الرغم من ان الدستور العراقي المؤقت لعام «1970» ضمن فرصاً متساوية لكل المواطنيين إلا أنه لم يحدّد بوضوح أية آليات يمكن أن تضمن أو تساعد على ضمان مشاركة النساء سياسياً (حسن، 2010، www.iknowpolitics.org)، إذ يتم استبعادهن من عمليات صنع القرار وحرمانهن من المساهمة بالمدخلات اللازمة لاتخاذ القرارات وصياغة السياسات العامة (الأمم المتحدة، 2021، iraq.un.org)، وهناك عوامل عدة تلعب دوراً كبيراً في استبعادهن عن مسرح العمل الميداني، أبرزها (إيمان كاظم، 2022، مقابلة خاصة):

- عدم الثقة الكافية للمرأة بنفسها وبعملها.
- عدم مقدرتها على إقناع زوجها وأسرتها بضرورة العمل.
- قلة الراتب المالي الذي تتقاضاه، ما يشكل عدم حافزية لها.
- قلة المجالات العملية والمهنية المناسبة للمراة وخصوصياتها.
- الخوف من الفشل والقضاء على آمالها المستقبلية.
- منع الرجل لها من المشاركة الميدانية لأسباب متعددة، منها العفاف ومنها عدم الفائدة المالية ومنها القمع ....إلخ.
- العمل المنزلي في تأدية واجباتها نحو أسرتها والاكتفاء بها.

- عدم كفاية العلم والتعلّم.
- عدم امتلاكها الثقافة العامة اللازمة لحضورها في الميدان العمل الاجتماعي.

بدأت المرأة العراقية بالظهور والمشاركة الميدانية في شتى المواقع العملية في وقت سابق على مستوى المؤسسات الحكومية، وبرز دورها بشكل فاعل في معظم المهام التي تولتها، أما لجهة عملها في المؤسسات الدينية فإن حضورها متأخر (إيمان كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، لا سيّما أن العتبات المقدسة ظهرت على هيئة تنظيم إداري ومؤسسات بعد سقوط صدام حسين ونظامه سنة 2003، وهذا الأمر يتطلب وقتاً حتى يتنشط تفعيل دور المرأة فيها.

ولم يكن حضور المرأة قوياً في الميدان العملي، نظراً لقلة فرص العمل قياساً على ما هي عليه اليوم، ومن جانب آخر، فإن تدني الراتب المالي لم يبرر خروج المرأة من منزلها لممارسة العمل المهني والوظيفي (إيمان كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، ولكن مع ظهور وسائل التواصل الاجتماعي في الوقت الحاضر، بدأ ظهور المرأة على أنها قادرة على تولي المناصب وإدارة المجالات العملية المختلفة فنجحت في إثبات حضورها، وتشجعت أكثر فأكثر نتيجة المردود المالي أولاً، ثم تحقيق الطموح وإثبات الذات (إيمان كاظم، 2022، مقابلة خاصة).

واللافت في حضور المرأة العملي في المؤسسات الدينية، مشاركتها الميدانية في مراسم أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، من خلال حضورها المباشر والكثيف على أكثر من موقع وأكثر من مهمة، سمحت لها الظروف الحياتية والميدانية بالانفتاح العلمي حتى بدأ المجتمع العراقي يتقبّل وجود المرأة إلى جانب الرجل في بعض المراكز العملية، فباتت تشاركه في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وحتى في المهام الأمنية واللوجستية لمختلف المناسبات الاجتماعية والدينية، وقد ساعدت في ذلك، الفتوى الجهادية لسماحة المرجع السيد علي السيستاني (إيمان كاظم، 2022، مقابلة خاصة).

ومن المشاركة العامّة للمرأة العراقية، ندخل إلى المهام الميدانية واللوجستية في مراسم أربعينية الإمام الحسين عليه السلام وما أظهرته من تطوّر في المهام وفي نوعيتها، حيث يبرز السؤال الأكبر في هذا المضمار، هل إن للمرأة العراقية مهام خاصة بها أثناء

مراسم الأربعينية؟ وهل تمتلك الكفاءة العلمية والمهنية في تأدية تلك المهام؟ وهل بات الشارع العراقي يتقبّل عمل المرأة خارج المنزل؟

من هنا، وقبل الدخول في مهام المرأة العراقية، لا بدّ من العروج ولو بإطلالة يسيرة على أصل الزيارة الأربعينية، وما تحمل من مضامين تعبديّة يعتقد بها المسلمون الشيعة عموماً ومنعم العراقيين، لأن لهذه المضامين أثر بالغ على مشاركة المرأة في مراسم الزيارة، إضافة إلى الوعي والتطوّر العلمي والانفتاح.

تحتل «زيارة الأربعين» للإمام الحسين عليه السلام مكانة خاصة في قلوب الموالين والمحبين لآل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، لا تضاهيها علاقة بين أي شخصين على الإطلاق، فهي ممتدة من جذور العشق الإلهي وعشق محمد وآل محمد عليهم السلام، على امتداد الزمان واتساع المكان.

من هذا المنطلق، فإن العلاقة الروحية بين الحبيب والمحبوب، تتعدى كل مفاعيل العلاقة المادية، وتسمو فوق كل العلاقات الفكرية والمعنوية، لأن العلاقة الدينية القائمة على المودة المفروضة في القرآن الكريم لأهل البيت عليهم السلام بما تضمنته الآية الكريمة ﴿ ...قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ (الشورى، الآية 23)، تعتبر الأرقى والأسمى في نوعية العلاقة ومضمونها وتراتبيّتها، وهذا ما أثبتته مراحل تلك العلاقة منذ انطلاقتها مع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مروراً بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم فاطمة الزهراء عليها السلام، وصولاً إلى الحسن والحسين عليهما السلام، ولم تتوقف عندهما، بل استمرت شعلتها مع كل الأئمة المعصومين عليهم السلام، حتى تقديم الولاء والبيعة والطاعة الممزوجين بالحب والمودة لصاحب العصر والزمان المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وإن الحديث عن حب آل البيت عليهم السلام لا يمكن أن يُختصر بفئة محددة من الناس، من الذكر أو الأنثى، أو زمان محدد أو حتى جغرافيا محددة، بل هو واسع وشامل لكل مفاصل الحياة، ويشمل الإنسان بذَكَرِه وأنثاه، واختلاف الجغرافيا والبقاع، لذا فإن العنصر النسائي في حبّ محمد وآل محمد عليهم السلام هو عنصر فعّال وناشط ومؤثر في النفوس، بل قد يبلغ مكانة أعظم من الرجال في بعض المواضع إن أحسنت المرأة تثقيف أبنائها وعيالها.

1. زيارة «الأربعين» وتأثيرها في النفوس

تؤدي العلاقة مع النبي محمد وآله عليهم السلام دوراً بارزاً في صقل النفوس، لأن الارتباط بهم هو ارتباط بالله تعالى مباشرة، وكانوا (صلوات الله عليهم) قد ربطوا العلاقة بهم بتأدية الواجبات الإلهية والابتعاد عن نواهيه.

وقد أجمع كل الأئمة عليهم السلام على تعظيم زيارة الإمام الحسين عليه السلام في مختلف المناسبات الإسلامية، حتى كان هناك الكثير من الروايات والأحاديث في فضل زيارته في أي وقت كان، ومن أي مكان كان، دون الوقوف عند حصرية الوصول إلى الحرم الحسيني المقدس في كربلاء لمن لا يستطيع إليه سبيلاً، فكانت الزيارات متعددة الأوقات وعلى اشتمال الليل والنهار والصوم والإفطار.

لقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام، إذ ورد عن الحسين بن ثوير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «يا حسين من خرج من منزله يريد زيارة قبر الحسين بن علي عليهما السلام إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة ومحى عنه سيئة، حتى إذا صار في الحائر كتبه الله من المفلحين المنجحين، حتى إذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين، حتى إذا أراد الانصراف أتاه ملك فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤك السلام ويقول لك: استأنف العمل فقد غفر لك ما مضى» (ابن قولويه، 1414 هـ، ص 253).

وأيضاً في رواية أخرى عن أبّان بن تغلب قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام أن أربعة آلاف ملك عند قبر الحسين عليه السلام شعث غبّر يبكون إلى يوم القيامة بينهم ملك يقال له منصور فلا يزوره زائر إلا استقبلوه ولا يودّعه مودّع إلا شيّعوه ولا يمرض إلا عادوه ولا يموت إلا صلّوا على جنازته واستغفروا له بعد موته» (الصدوق، 1368 ش، ص 87).

وفي رواية مخصوصة في زيارة الأربعين، روى كل من الشيخ المفيد والشيخ الطوسي ما جاء في رواية عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام أنه قال: «علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم» (المفيد، 1993، ص 53؛ الطوسي، 1991، ص 788).

لذا، عندما تجتمع الحشود في مسيرة واحدة وتغطي مساحة شاسعة من العراق يصبّ مسارها في المرقد الحسيني الشريف، فإن هذه الحشود تعيش آثار الزيارة الأربعينية في النفوس، التي لا يمكن فصل فضائلها عن المناسك الأخرى، كالصلاة والصيام والحج لأنها تجمع أغلب المناسك في شعيرة واحدة.

ومن الآثار الكبرى للأربعينية أيضاً، أنها تساعد في التمهيد لظهور الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وصناعة الشخصية المهدوية، من خلال بناء الشخصية الروحية والمعنوية إضافة إلى الشخصية العاملة والسالكة ميدانياً في التجهيز والإعداد، لأن التمهيد للظهور المبارك وانتظار الفرج بمختلف تشعباته العملية والنظرية هو من أهم المفردات التي تشغل عقل وفكر وبدن وروح الإنسان المؤمن، فتمثّل هذه المسيرة المليونية إحدى شعائر السير المنظّم تحت راية المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وقيادته المستقبلية.

2. مساواة الرجل والمرأة في طقوس الزيارة ومراسمها

منذ اللحظة الأولى لاستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وسبي زينب بنت علي بن أبي طالب عليهما السلام والنساء إلى قصر يزيد بن معاوية، اشتغلت الحركة النسوية بإحياء المظلومية وإظهار الحق، من خلال الدور الذي لعبته زينب عليها السلام، فكانت المتصدية لاستكمال النهج الحسيني وشريكة ابن أخيها الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في استكمال الثورة من منطلقات أخرى، إذ بدأت بالحركة الإعلامية ولم تنتهِ في الميدان الاجتماعي، وما بينهما من ميادين مختلفة، لا تنحصر ولا تتأطر في هيكل واحد، إنما تتعدى كل الأطر والميادين.

إن ما كان من تشريعات إلهية وما قدّمته زينب عليها السلام في مسيرة كربلاء، قبل شهادة أخيها وبعدها، يدلّ بكل تأكيد على تحمّل المرأة المسلمة واجبات فرضها اللّه تعالى عليها تعادل واجبات الرجل وتساويها في المسائل الدنيوية والأخروية، وتأتي زيارة الأربعين في طليعة الأعمال التي يتساوى بها الرجل والمرأة دون تمييز، مع لحاظ الأحكام الشرعية المتعلقة في مسألة الاجتماع والمناسك، شأنها في ذلك شأن الصلاة والصيام والحج في الأجر والثواب إن لم يكن أعظم، بفعل توصيات النبي والأئمة عليهم السلام وارتباط العلاقة مع الحسين عليه السلام بأصول الدين وفروعه

واستمرارية الإسلام، وعمق العلاقة بين المؤمن وأوليائه.

وقد حثّت الأحاديث الشريفة الرجل والمرأة معاً على زيارة الإمام الحسين عليه السلام، فلم يفرّق فيما بينهما بوجوبها، وقد ورد في كتاب «**كامل الزيارات**» لابن قولويه: حدثني محمد بن جعفر الرزاز، قال: حدثني محمد بن الحسين بن أبي الخطاب، عن أبي داود المسترق، عن أم سعيد الأحمسية، عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قالت: قال لي: يا أم سعيد تزورين قبر الحسين، قالت: قلت: نعم، فقال لي: زوريه فان زيارة قبر الحسين واجبة على الرجال والنساء» (ابن قولويه، 1417 هـ، ص 237).

3. عمل المرأة في زيارة أربعين الإمام الحسين عليه السلام

لا يمكن فصل عمل المرأة في الزيارة الأربعينية عن عمل الرجال، فلها في ميادين العمل ما لهم، ويمكن تقسيم انتظام العمل وإدارته بحسب المواكب والبلاد والمناطق والمهام الملقاة على كواهل النساء المشاركات في تنظيم المسيرة، وهناك نوعان من العمل للمرأة، العمل المجاني التطوّعي والعمل المدفوع الأجر.

برز عمل النساء العراقيات في زيارة الأربعين بعد فتوى آية اللّه العظمى السيد علي السيستاني بفتواه المتعلقة بالجهاد الكفائي التي تقتضي «الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي» (الكربلائي، 2014، www.sistani.org)، لحفظ العراق وشعبه ومقدساته، وقد شاركت النسوة في العمل الجهادي في أداء الشعيرة الحسينية حيث إنها لم يكن لها هذا الظهور قبل الفتوى (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، وذلك نظراً لتقاليد المجتمع العراقي وعدم السماح للمرأة بالنزول إلى الميادين العامة منفردة، أو المشاركة بالأعمال الجماعية لا سيّما ما قبل العام 2003، فكانت مشاركتها تقتصر على الزيارة الخاصة ليلاً عبر الدروب النيسمية[1]، دون أن يكون لها أي دور عملي أو إداري. في حين أن مشاركة المرأة من دول أخرى كان مسموحاً به حتى السفر منفردة إلى العراق، لا سيّما المرأة اللبنانية.

(1) عبارة عن طريق فرعي منفصل عن الطريق العام، ترابية ومختصرة، عادة ما تكون بين بساتين النخل والأشجار، كانت معتمدة في زمن صدام حسين ليتوارى الزائرون عن أنظار رجال أمن النظام كي لا يتعرضوا للعقوبة التي قد تبلغ الإعدام أو السجن المؤبد، وكانت الطرق المعتمدة للنساء لأن الحرج عليها أكبر.

يتميّز التنظيم الإداري لمراسم الأربعينية بوجود عاملات عراقيات منتشرات بأعداد وافرة على مختلف مناطق الوفود القادمة، ولهن حصرية الانتشار الرسمي تحت إدارة عراقية رسمية، إما أن تكون تابعة للعتبات المقدسة أو للدولة العراقية أو حتى للعشائر وأهالي المناطق على امتداد المساحة الجغرافية التي تسلكها الوفود الزائرة.

من جهة أخرى، تقوم الوفود الزائرة من خارج العراق بإعداد فريق إداري ولوجستي مؤلف من الرجال والنساء، فتساعد النسوة إدارة المواكب والحملات على التنظيم وتقديم المعونات منذ انطلاقة سفرها من بلدها الأصلي، فتساهم بإعداد القوائم الإدارية وترتيب الأسماء ضمن لوائح وتوزيع الأفراد، هذا إضافة إلى المسائل اللوجستية من طبابة وإعداد الطعام وغير ذلك.

1.3. عمل المرأة التطوعي

لا شك أن حب الحسين عليه السلام يتدفق في قلوب النساء المؤمنات تدفق الدم في الشرايين، فلا يمكن أن يتوقف حتى بعد الوفاة، لأن حب الحسين عليه السلام يسير بهنّ نحو المحبوب ويدخلهنّ الجنة ويجمعهنّ مع الحسين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وانطلاقاً من حبّ الحسين عليه السلام تأتي المشاركة في تنظيم الزيارة، فتتطوّع الكثيرات من الإناث لأداء المهام دون بدل مالي، وهو ما يحصل داخل العراق وخارجه، وليس محصوراً بتنظيم مراسم الزيارة الأربعينية فقط، أو محصوراً بالنسوة العراقيات فقط، فمثلاً تجد اللبنانيات يسافرن مع حملات الزيارة للمشاركة في تأمين بعض الأعمال اللوجستية والخدماتية للزائرين دون أن يقبضن ليرة واحدة، إنما يكون أجرهنّ المالي كناية عن زيارة الإمام الحسين عليه السلام مجاناً، مع تحمّلهنّ مشقّات العمل والسفر والتعب والعناء بأداء الواجب ليرتاح الزائرون.

إن العمل النسائي التطوّعي يبرز جليّاً في العراق نظراً لحجم المشاركة فيه، فلا يمكن أن يكون موكباً أو عملاً يرتبط بالزوار، إلا وتجد للنسوة العراقيات حظاً منه، على اختلاف نوع العمل وصعوباته وتعدّد مساراته، وذلك عملاً بالمستحبّ المؤكد الذي يؤْمِنَّ به وتعلقاً بأهل البيت عليهم السلام، وهو دافع إيماني محض، نظراً لضعف الدوافع

الأخرى غير الدافع المالي، وبالتالي عندما يكون عملهن تطوّعي فإن المكسب المالي ينتفي من الوجود.

2.3. عمل المرأة مقابل الأجر المالي

إن الحديث عن العمل التطوّعي لا ينفي وجود عمل مقابل أجر مالي، وهو حق للعاملين والعاملات في مختلف الأعمال، سواء في الأعمال الدينية أو المهنية ومن خلال المهن والمهام التي يقومون بها.

لا يختلف عمل المرأة عن الرجل بأحقية استيفاء بدل مالي عنه، حتى وإن كان في المؤسسات الدينية الإسلامية، على رأسها العتبات الدينية المقدسة، وهي غير محصورة بالمرقدَيْن الشريفَيْن للإمام الحسين والعباس بن علي عليهما السلام، إنما يتوسع عملها في مختلف المراقد المقدسة.

لذلك فقد خصّصت العتبات المقدسة ووزارة الداخلية العراقية رواتب للعاملات تنسجم مع مهام كل منهنّ، يختلف مقدار الراتب بحسب الاختصاص والمنصب والكفاءة العلمية والمهام العملية أو الدوام النهاري والليلي، لذلك نجد فروقات في الرواتب ما بين مصدر وآخر، وما بين عاملة وأخرى.

والجدير ذكره، أن البدَلات المالية تأتي من مصادر عدة، أبرزها ما تدفعه وزارة الداخلية العراقية والعتبات المقدسة من الأوقاف الشيعية.

وعلى هذا القياس، نجد أن رواتب العاملات تتراوح ما بين 750 ألف دينار حتى المليوني دينار للعاملات المسجلات على نفقة وزارة الداخلية، حيث ينتشر أغلبهن في المنافذ البرية والمطارات وبعض المعابر الداخلية المؤدية إلى محافظة كربلاء، بينما تدفع العتبات ما بين 500 ألف حتى المليون دينار للعاملات المسجلات على نفقتها والمنتشرات بأغلبهن داخل الحرمين الحسيني والعباسي المقدّسَيْن، أو عند بعض المعابر الخارجية لمنطقة الحرمَيْن.

واللافت في الموضوع، أن الانتساب العملي والإداري المدفوع الأجر محصور بالعراقيات دون سواهن من الجنسيات الأخرى، إذ لا يمكن أن تقبض أية عاملة من الدول الأخرى.

4. جنسية المرأة العاملة في الزيارة

تتعدد جنسيات الوفود المشاركة في الزيارة الأربعينية، فقد اعلنت العتبة العباسية المقدسة أن عدد المواكب المشاركة في زيارة الأربعين بلغ (14500) موكب، منها (300) موكب من دول عربية وغير عربية (الوكالة الوطنية العراقية للأنباء، 2022، ninanews.com)، فبلغ عدد الجنسيات نحو (80) جنسية من دول عربية وغير عربية في العام 2022 (وكالة الأنباء القرآنية الدولية، 2022، iqna.ir)، ولم تقتصر على قارة آسيا، إنما وفد الزائرون من أوروبا وأميركا والدول الغربية، وكذلك فإن الوافدين يحملون جنسية تلك البلاد أو من يقيم فيها.

وفي موازاة ذلك، لا يقتصر الزائرون على الشيعة الموالين لأهل البيت عليهم السلام، إنما ينتمي بعض الوافدين إلى الطائفة السنّية أو إلى بعض الطوائف المسيحية، يجمعهم في ذلك معرفتهم بالحسين عليه السلام وأهدافة وحقيقة ثورته فتنصهر حباً له.

وفي هذا السياق، تبلغ الجنسية العراقية النسبة الأعلى في جنسية الزائرين نظراً لوجود العتبات المقدسة على أرض العراق، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نسبة السكان الشيعة العراقيين الذين يتصدرون قائمة السكان المحليين، إذ تشير التقديرات أن يبلغ عدد سكان العراق نحو (42.248.900) نسمة (وزارة التخطيط العراقية، 2022، cosit.gov.iq/ar/)، وفق ما أورده الجهاز المركزي للإحصاء في وزارة التخطيط العراقية، في حين أن هناك بعض المواقع أعطت تقديراً عامّاً لنسبة الشيعة في العراق تتراوح ما بين 69 ٪ (زيدان، 2021، almayadeen.net)، و85٪ (عيد، 2022، mhtwyat.com؛ الأبحاث العقائدية، 2022، www.aqaed.com)، من مجموع السكان العام.

وكانت وزارة التخطيط العراقية قد نشرت جدولاً يظهر فيه تقديرات عدد الإناث للعام 2021، فيبلغ نحو (20,380,179) أنثى (وزارة التخطيط العراقية، 2022، cosit.gov.iq/ar/)، بعد أن بلغ في العام 2020 نحو (19,865,351) أنثى (وزارة التخطيط العراقية، 2022، cosit.gov.iq/ar/)، بزيادة (514,828) أنثى في عام واحد وفق التقديرات.

ثم تأتي الجنسية الإيرانية الثانية في الترتيب بأعداد ضخمة، وشارك في الزيارة عدد قياسي من الإيرانيين، بلغ ثلاثة ملايين شخص (DW, 2022, www.dw.com)، ويعود

هذا لعامل العدد السكاني الشيعي الأول في العالم المقيم في إيران ويحمل جنسيتها، وأيضاً للحدود الجغرافية الملاصقة مع العراق، وكذلك تطوير العلاقات السياسية والشعبية بين البلدين في العقدين الأخيرين اللذين يجمعان مركزي الحوزة الشيعية في قم والنجف.

ثم تأتي مختلف الدول الأخرى بوفودها في المراتب التالية بنسب المشاركة، لأنها لا تعتبر مركزاً شيعياً عالمياً، كما هو حال الجمهورية الإسلامية الإيرانية والجمهورية العراقية.

لقد ظهرت أرقام تصاعدية للزوار الشيعة إلى العتبات المقدسة في العراق على مدار الأعوام الماضية، ما رفع نسبة الدعم اللوجستي والمشاركة الميدانية النسائية في مختلف الميادين، ونظراً لحاجة الوفود إلى العنصر النسائي في مجالات عدة، فإن ارتفاع عدد المشاركات سيرتفع مع ارتفاع الأعداد الوافدة، وقد أوضح التقرير التالي الأعداد الزائرة في السنوات الست الماضية (شبكة الكفيل العالمية، 2021، alkafeel.net):

- **(16,327,542)** ستّة عشر مليوناً وثلاثُمائةٍ وسبعةٌ وعشرون ألفاً وخمسُمائةٍ واثنان وأربعون زائراً للسنة الهجريّة 1443.
- **(14,553,308)** أربعة عشر مليوناً وخمسُمائةٍ وثلاثةٌ وخمسون ألفاً وثلاثُمائةٍ وثمانية زائرين للسنة الهجريّة 1442.
- **(15,229,955)** خمسة عشر مليوناً ومائتان وتسعةٌ وعشرون ألفاً وتسعُمائةٍ وخمسةٌ وخمسون زائراً للسنة الهجريّة 1441.
- **(15,322,949)** خمسة عشر مليوناً وثلاثُمائةٍ واثنان وعشرون ألفاً وتسعُمائةٍ وتسعةٌ وأربعون زائراً للسنة الهجريّة 1440.
- **(13,874,818)** ثلاثة عشر مليوناً وثمانمائةٍ وأربعةٌ وسبعون ألفاً وثمانمائةٍ وثمانية عشر زائراً للسنة الهجريّة 1439.
- **(11,210,367)** أحد عشر مليوناً ومائتان وعشرةُ آلافٍ وثلاثُمائةٍ وسبعةٌ وستّون زائراً للسنة الهجريّة 1438.

من هنا يظهر أن ارتفاع الأعداد المشاركة في السنوات الست، يستوجب ارتفاع العنصر النسائي، وأيضاً يَلزمه ازدياد الفرق النسائية للعمل في مختلف الميادين.

5. مناطق عمل المرأة في الأربعينية

تعتبر أغلب الأراضي العراقية مناطق مفتوحة أثناء تأدية مراسم الأربعينية، وقلّ ما توجد منطقة أو مدينة أو معبر بري أو جويّ خارج عن هذه المهمة الدينية المقدسة، بما في ذلك المناطق ذات الأغلبية غير الشيعية أو حتى المناطق ذات الأغلبية السكانية المسيحية، لأن لهذه الشعيرة قدسية خاصة داخل نفوس معظم العراقيين على اختلاف مذاهبهم الدينية والطائفية والمناطقية.

لذلك لا توجد منطقة بعينها معنية بتلك المراسم، أو منطقة بعينها خارج هذه المهمة، بل تتأهب جميعها للتعاون من أجل حسن سير المراسم، وقد شهدت كل المنافذ البرية، على امتداد الحدود الدولية مع الـدول المجاورة، حركة استقبال الزائرين، إضافة إلى مختلف المطارات المدنية.

ويتبع هذا التدبير الميداني إجـراءات مستمرة على امتداد المناطق والمعابر والطرقات المؤدية إلى محافظة كربلاء من مختلف المحافظات الأخرى، وحتى داخل كربلاء نفسها، في المعابر المؤدية إلى داخل الحرم.

يستلزم هذا الإطار الجغرافي الواسع لمنطقة العمل، حضور عدد كبير من العنصر النسائي ليفي بغرض الأعمال المنوطة بهنّ من حيث الاستقبال والتشريفات والتفتيش والخدمات اللوجستية والإعلامية وغيرها.

6. دور المرأة في مراسم الزيارة

إن الحديث عن الأعداد النسوية المشاركة في مراسم الزيارة الأربعينية من كل المواكب الخدمية كبيرة جداً يصعب حصرها، والمعروف أنه على رأس كل موكب من هذه المواكب مدير يسجل اسمه وعناصره ومهامه لدى «هيئة المواكب الحسينية» في العتبات المقدسة، وتتصدر العتبة الحسينية النسبة الأكبر بقائمة المواكب المسجلة (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، وعادة ما يكون على رأس كل موكب رجل يديره،

لكن المشهد الحديث أظهر وجود مواكب تتصدر رئاستها وإدارتها امرأة، حيث لم يكن وارداً أن تتصدى امرأة لهذا المنصب في السابق.

وتعمل المرأة في مجالات متعددة، منها الإداري ومنها الطبي ومنها اللوجستي، كذلك هناك مجالات عمل أخرى في ميادين الإعلام والإرشاد والتبليغ، وغيرها مما تحتاجه مراسم الأربعين.

1.6.الدور الإداري

تتولى المرأة مهامها المتوازية مع مهام الرجل في شتى المحاور الإدارية فيما يتعلّق بالمساهمة في تنظيم لوائح الوفود وتسجيلها أو تنظيم مهامها أو توزيعها أماكن عملها ومواكبتها على مدار الزيارة.

وتقسم مهام المرأة في العمل الإداري إلى قسمين، قسم يتبع المؤسسة المشرفة، أي وزارة الداخلية العراقية والعتبات المقدسة، وهي ترتبط إدارياً بالسلطة العليا، تعمل على تنظيم المواكب وعلاقتها بالسلطات المشرفة، من خلال ضبط القيود والمهام والإشراف على حسن سير المراسم لاسيّما فيما يتعلّق بالقسم النسوي.

أما القسم الآخر من العمل الإداري فهو يرتبط بالمواكب نفسها، فتكون عضواً في الموكب، وحالياً أصبح بإمكان المرأة أن تتولى إدارة الموكب وتنظيمه وتوزيع المهام على أفراده، إضافة إلى متابعة المهام المتعلقة بالنساء في الموكب.

2.6.الاستقبال والتشريفات

تعمل النسوة في ميدان التشريفات واستقبال الزوار منذ وقت بعيد، وتقمْنَ بمهمة إرشاد النساء الوافدات إلى التعليمات المتعلقة بالزيارة، أو مساعدتهن بتلبية حاجياتهن، وقد كانت هذه الأعمال منوطة بالإناث غير المتعلمات أو الآتيات من الطبقات الوسطى وما دون، إلا أن جديداً طرأ على هذا الجانب، حيث أقيم ملتقى نسوي عالمي في كربلاء، تحت شعار «المخيم الحسيني الدولي الأول للأكاديميات» من قبل جامعة الزهراء عليها السلام، برئاسة رئيسة جامعة الزهراء التابعة للعتبة الحسينية المقدسة، وقد تأسّس هذا المخيم في العام الحالي لدفع المتعلمات والحائزات على الشهادات العليا والمتحدرات من الطبقات الاجتماعية الرفيعة للمشاركة في مراسم

الأربعينية، وإفساح المجال لغير العراقيات بالمشاركة أيضاً، إشعاراً بأهمية خدمة المرأة الأكاديمية في زيارة الأربعين، وأن الخدمة لا تقتصر على العامّة أو النساء اللواتي لا يمتلكن مستوى تعليمي رفيع، وأيضاً برز من أهداف المخيم، إشعار العالم بوجود هدف ثقافي في الزيارة وأهمية مشاركة المرأة في المراسم الدينية الكبرى (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، وقد انطلق من محاور ثلاثة:

- محور الخدمة التشريفية: وهو العمل على تنظيم حركة الزائرات داخل العتبات وفك التزاحم بينهن.
- المحور الإعلامي: يتمثّل بإقامة عدد من الورش والندوات الإعلامية.
- محور أكاديمي بحثي: لتقديم بحوث حول زيارة الأربعين ومضامينها وكذلك حول المرأة.

وقد شاركت أستاذات جامعيات من سوريا ولبنان والعراق وإيران، على أن يكون العمل لاحقاً على إضافة أوروبا وشمال أفريقيا. وتعتبر هذه الأفكار حديثة ومتطوّرة انطلقت في العام 2022، ولم تكن موجودة سابقاً، وهو تطوّر مهني يستعين بجهود المرأة المتعلمة.

3.6. تنظيم حضور الزائرات داخل الحرم

نظراً لإمكانية المرأة الدخول إلى الحرم المقدس وتأدية مناسك الزيارة قرب الضريح، بات من الواجب الاستعانة بالعنصر النسائي داخل الحرم لأداء بعض الأعمال التنظيمية، وحسن سير المناسك، على سبيل عدم التدافع وتسهيل الدخول والخروج والحثّ على التحرّك السريع والمساعدة بتأمين أماكن للصلاة عند الازدحام، كل هذه الأعمال تسبب إرهاقاً جسدياً للعاملة على غرار ما يتعرض له الرجل أثناء تأدية نفس المهام، لا بل قد يزيد المسؤولية على العنصر النسائي نظراً لتعاملها مع نظيراتها اللاتي يمكن أن يكنّ في حالات تعب أو مرض أو ضعف بدني يستوجب تدخلهن المباشر.

4.6. الدور الإعلامي

يلعب الإعلام دوراً أساسياً وهاماً في كافة مجريات الأعمال اليومية، ويحمل من الفائدة والخطورة بنسب متساوية، إذ إنه بات السلاح الأمضى في زماننا هذا، من حيث



التأثير في العقول والقلوب، ورسم معادلات وخطط جديدة في إدارة الصراعات على مختلف المحاور النفسية والفكرية وصولاً إلى العسكرية.

وتدخل زيارة الأربعين في صلب المهام الإعلامية على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي، وتتخذ في بعض الأحيان جانباً انحيازياً سياسياً وفكرياً وثقافياً ما بين مؤيد ومعتقد ومؤمن بها، هذا من جانب، ومن جانب آخر بين معارض ومستهزئ بها، كذلك دخلت الأربعينية في سياق الصراع العقائدي الذي يعمل عليه الغرب وأعوانه في الحرب السياسية والإعلامية.

لقد شهدت مراسم الأربعين، على امتداد السنوات الماضية، حضوراً إعلامياً وازناً من مختلف الدول، العربية وغير العربية، وحتى الأوروبية والغربية، حتى بلغت في العام 2020، مشاركة **(168)** وسيلة اعلامية محلية وعربية واجنبية، و **(1618)** صحفياً، بينهم **(128)** صحفياً عربياً وأجنبياً، وذلك بما أفاد به مدير قسم الاتصال الحكومي في محافظة كربلاء المقدسة (الهدى، 2020، al-hodaonline.com).

من جهته، أعلن قسمُ الشؤون الفكريّة والثقافيّة في العتبة العبّاسية المقدّسة عن مشاركة **(350)** وسيلةً إعلاميّة محلّية ودوليّة، توزّعت بين المقروء والمسموع والمرئيّ والإلكترونيّ، و **(12)** قناة فضائيّة نقلت بصورةٍ مباشرة من خلال ستّ محطّات للنقل المباشر (الهدى ، 2020، al-hodaonline.com).

إن كل تلك الوسائل الإعلامية يشترك في أداء عملها النساء مع الرجال، وقد شهدت الساحة العراقية حديثاً، إعلاميات متمرّسات يعملن على تغطية الحدث السنوي، فشاركت المرأة العراقية مهام المراسلة والتقارير والتصوير وإجراء المقابلات، سواء كانت تعمل لصالح محطة محلية أو فضائية أو خارجية.

وكذلك تم الانتقال إلى ما يُعرف بالإعلام النسوي، بعد بلورة فكرة تأسيس هذا الإعلام في نهاية العام 2015، وانتقاله إلى العمل الميداني في ساحات الزيارة ومناطقها، وقد برز دور الإعلام النسوي بشكل واضح من خلال تقديم سيرة أهل البيت عليهم السلام وتسليط الضوء على سيرة السيدة زينب عليها السلام ودورها والتأسّي بها، فكانت أبرز العناوين الحاضرة في شتى الأعمال الإعلامية النسائية.

5.6.الدور الأمني

تشهد العتبات المقدسة حشوداً بشرية ضخمة في الأربعينية، لا تقتصر على الرجال، إنما وفدت النسوة أيضاً بأعداد غفيرة، ما يلزمها رعاية ومراقبة وإرشاد مستمر على مدى ساعات الزيارة، وقد حلّت المخاطر المحدقة بالمراسم بشكل كبير مع بروز العناصر التكفيرية سواء انتمت للقاعدة أو داعش أو مثيلاتهما من التنظيمات التكفيرية التي تهدد الأمن وتفتك بكل من يخالفها عقيدتها، فبات لزوماً على إدارات العتبات والمراقد المقدسة تأمين الحماية الأمنية من خلال بعض الإجراءات الفيزيائية واليدوية، سواء من الرجال أو النساء.

لقد لعبت فتوى الجهاد الكفائي لسماحة المرجع السيد على السيستاني، بوجوب الدفاع عن الأماكن المقدسة وعن المناطق العراقية، دوراً بارزاً بانخراط العنصر النسوي في ميدان الحماية الأمنية من خلال التفتيشات والمراقبة المنتشرة على طول الخطوط المؤدية إلى كربلاء المقدسة ومنها إلى داحل الحرمَيْن الشريفَيْن.

وتنفيذاً للفتوى، شاركت المرأة في حفظ الأمن بقيامها مهاماً محددة في الأقسام المحددة للوفود النسائية حيث لا يمكن للرجال أن يتواجدوا، نظراً لمراعاة الأحكام الشرعية، لذلك أنيطت مسألة تفتيش النساء ومراقبتهن، حضورياً أو من خلف شاشات المراقبة في غرف مخصّصة، بعاملات تمتهنّ الحسّ الأمني والأداء المرن.

إن من طبيعة العمل الأمني أن يختص بالرجال، وإن بلداً كالعراق بعاداته وتقاليده الاجتماعية التي تحظر نزول المرأة إلى الكثير من الميادين الجماعية، أصبحت المرأة فيه مشارِكة مشاركة فعالة في أغلب المهام الميدانية، وهو تطوّر هام رسخته المرأة بنشاطها وحضورها وقوة شخصيتها.

6.6. الأمن السيبراني

هو علم متطور، وله تداعياته الهامة على الساحة الإعلامية، لا سيّما صفحات المواقع الاجتماعية، وفيما يخص المجتمع العراقي، فهو مجتمع معقد جداً (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، كانت الجرائم السيبرانية تتصاعد فيه بوتيرة كبيرة وتشكل عامل ضغط قوي عليه، فولدت حاجة ملحّة في تقنين تلك الجرائم وضبطها.

ومن هذه الحاجة الماسّة، كانت للمرأة العراقية مشاركة متميزة في هذا الميدان الذي تم تفعيله وتصويبه نحو الزيارة الأربعينية بكل موضوعاتها الأمنية والاجتماعية والعلمية والدينية والاقتصادية، وقد أجرت حوارات متعددة ومتشعبة وعملت على الترويج الفكري والعقائدي والبعد الروحي لزيارة الأربعين، إضافة إلى تبيين مظلومية أهالي اليمن والمشاكل في عدد من الدول كلبنان وسورية وغيرهما (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة).

7.6. الدور اللوجستي

بالإضافة إلى المهام السابقة، التي لا يمكن التغافل عنها، أثبتت المرأة العراقية أنها إنسان حيوي تطوّري لا تقف عند ضعف بنيتها الجسدية في العديد من المهام التي تتطلب مهاماً جسدية قوية، فقد اقتحمت الميدان اللوجستي بأقسامه المتعددة، ويكفي الإطلالة على موضوعين بارزين يتطلبان قوة بدنية وعقلاً راجحاً وإرادة صلبة، كالمساعدة والمساهمة الطبية بمختلف أركانها ومندرجاتها، كطبيبة أو مسعفة أو مرشدة أو عاملة طوارئ طبية، او حتى كعاملة في مجال إعداد الطعام وتجهيزه وتهيئة أماكن المنامة وغسيل الملابس للوافدين، وكل هذه المهام تلقي عبءاً ثقيلاً على كاهل المرأة.

1.7.6. الدور الطبي

تشهد مشاركة العنصر النسائي في العمل الطبي ارتفاعاً ملحوظاً، حيث يحتلّ العمل الطبي نسبة مرتفعة من مشاركة المرأة، وكانت هذه الخدمات تأتي مترافقة مع الوفود والمواكب من خارج العراق، فازدادت مساهمتها في الخدمات الطبية نظراً لحاجة المؤسسات الطبية إلى عاملات في هذا المضمار، واندرجت ضمن إطار العمل الرسمي المعني بالمفارز الطبية التابعة لمراسم الزيارة (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة).

وقد قدّم مركز العلقمي الخَدَمي الواقع على طريق كربلاء ـ بابل، في العام 2020، خدمات طبية متميّزة بما يتلاءم مع انتشار وباء كورونا، حيث تكثفت «الجهود تماشياً مع الوضع العام لجائحة كورونا والحاجة لاستعداداتٍ من نوعٍ خاصّ، كتجهيز معدّات

التعفير والتعقيم وكذلك توفير ما تحتاجه الزائرة الكريمة» (شبكة الكفيل العالمية، 2020، alkafeel.net)، واللافت في موضوع الخدمة الطبية أنّه «اعتادت الملاكاتُ النسويّة في العتبة المقدّسة ومن يساعدهنّ من المتطوّعات، على تقديم الخدمة سنويّاً في هذا الموقع وغيره من المواقع الأُخَر (شبكة الكفيل العالمية، 2020، alkafeel.net).

وقد أعلنت العتبة الحسينية المقدسة أن « ((3600من الملاكات الطبية والتمريضية بينهم (1200) منتسب من ملاكات الهيئة، و (2400) منتسب من المتطوعين، بينهم (200) مسعف ومسعفة جوالة» (العتبة الحسينية المقدسة، 2022، imamhussain.org)، وأن خطتها الطبية الخاصة بزيارة الأربعين شهدت تقديم الخدمة لـ (1.348.632) (العتبة الحسينية المقدسة، 2022، imamhussain.org)، تشاركت فيها المرأة والرجل في الميدان الطبي.

وقدم الجهاز الطبي النسوي الخدمات للزائرات في القسم الخاصّ باستضافة النساء، بما يتلاءم والظرف الصحّي الذي مرّت به الزيارة من خلال تنفيذ «خطّةٍ مختلفة نوعاً ما عن خطّتنا في الزيارات السابقة، لكون أنّ هذا العام يشهد تفشّياً لوباء كورونا، إذ بدأت خدماتنا من اليوم السابع من صفر الخير الى ختام الزيارة وما بعدها، وتم الحرص الكبير على اتّخاذ جميع الإجراءات الاحترازيّة الطبّية الوقائيّة حفاظاً على سلامة الزائرين، وهي التعقيم ولبس الكفوف والكمّامات»، واتخاذ الإجراءات اللازمة (شبكة الكفيل العالمية، 2020، alkafeel.net).

2.7.6. تحضير الطعام وغسل الملابس وتأمين المنامة

لا ينفصل تحضير الطعام عن المهام الأساسية أثناء الزيارة الأربعينية، وهو عمل يلزمه جهاز متخصص يعتمد في أغلبه على العنصر النسائي، لكونهنّ الضالعات العارفات بتفاصيل الطبخ وإعداد الطعام.

ومن المفيد ذكره أن المواكب الحسينية تخصص قسماً كبيراً من المبالغ المالية والجهاز التنفيذي في سبيل تأمين الطعام على امتداد الطرقات المؤدية إلى كربلاء وصولاً إلى الحرمَيْن المقدّسَيْن، وهذه المكرمة يتمتع بها أهل العراق منذ زمن بعيد،

وباتت تنتشر في بعض الدول الأخرى كلبنان في بعض المناسبات الدينية، من حيث إقامة المضائف وتقديم الطعام، وهي مكرمة مستوحاة من مضائف الطعام في العراق أثناء الأربعينية.

لقد تم إحصاء نحو (125) مليون وجبة طعام ونحو خمسة ملايين قنينة عصير على اختلاف أنواعه، وإن للنساء النصيب الأكبر في الإعداد والتنفيذ.

وإضافة إلى تحضير الطعام، هناك خدمات لوجستية أخرى تقدمنها النسوة كغسيل ملابس الزائرين، فيعملن على إبراز الزائر بأحسن حلله وأبهى طلعته، دون الحصول على بدل مالي مقابل.

وهناك أيضاً تأمين أماكن المبيت، وينقسم إلى قسمين، القسم الأول متوفر في المضائف المنتشرة على الطرقات، والقسم الآخر هو اصطحاب عدد من الزوار إلى المنازل الخاصة في مناطق الوفود الزائرة، فتعمل نسوة المنازل على تقديم الخدمات الرعائية من غسيل ملابس وتقديم الطعام وتأمين الفراش النظيف إضافة إلى الخدمات الطبية المنزلية.

8.6. الارشاد والتبليغ الديني

يدخل التبليغ الديني من الباب الواسع لأهداف الزيارة الأربعينية، سواء من خلال التلقين المباشر أو من خلال المظاهر والأعراف والتقاليد المتبعة.

تلعب النسوة دوراً بارزاً على هذا الصعيد من خلال تحوّل عمل المرأة إلى الوعي والإرشاد ضمن المواكب الثقافية، على طريق المشاة، وتشارك في تقديم الاستشارة والدعم النفسي والمعنوي وقضايا الإرشاد الديني من خلال إظهار صورة إيجابية عن الحجاب والالتزام به (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، والتأسي بذكر أهل البيت عليهم السلام.

وقد أقامت مكتبةُ أمّ البنين عليها السلام النسويّة التابعة لقسم الشؤون الفكريّة والثقافيّة في العتبة العبّاسية المقدّسة، موكبها السنويّ النسويّ «نساء حول الحسين عليه السلام»، وهو موكب ثقافي تربوي يشمل جملةً من الفعّاليات والفقرات من ضمنها الخيمة الثقافيّة، التي يتمّ من خلالها تزويد الزائرات بالمعلومات فكريّاً وثقافيّاً ودينيّاً، سواء حضورياً أو

الكترونياً، كما تضمّن إقامة معرضٍ كبير للكتاب ومسابقاتٍ حسينيّة متنوّعة وفعّالياتٍ عباديّة وخدميّة (شبكة الكفيل العالمية، 2021، alkafeel.net).

الخاتمة

يتوسّع نشاط المرأة العراقية يوماً بعد يوم بالمشاركة بالمراسم الحسينية، من خلال المشاركة الفعلية والحضورية بالمهام الميدانية للزيارة الأربعينية، ما يدلّ على توسّع مهامها الحياتية، سواء داخل منزلها أو خارجه، تبعاً لمواكبة تطوّر المجتمع المحلي أو حتى التطور الدولي، لا سيّما بأداء مهام جديدة تواكب التطور العلمي والإداري.

وقد بدأت مشاركتها في الخدمة التشريفية في بعض المواكب الجزئية ثم انتقلت إلى خدمة تشريفية عامة في جميع المواكب الحسينية البالغ عددها أكثر من (23500) ألف موكب وهيئة حسينية (شبكة الكفيل العالمية، 2021، alkafeel.net)، شاركوا وفق أعلى الإحصائيات (مآثر كاظم، 2022، مقابلة خاصة)، لذلك يمكن مقاربة العمل النسوي في الأربعينية من خلال رسم خط بياني صعودي بانتقال المشاركة النسائية من مرحلة إقامة مجالس العزاء في المنازل إلى مرحلة المشاركة الجزئية في خدمة المواكب إلى مرحلة المشاركة الرسمية العامة في مختلف مجالات العمل لا سيّما في المفارز الطبية والإعلامية، وصولاً إلى مرحلة المشاركة الشاملة في مراسم الأربعينية، حتى بلغ أقصاه بإقامة مواكب خاصة بالنساء على اعتبار المرأة شريك أساسي وفاعل في الزيارة المليونية.

إن تطوّر العمل النسائي في مراسم الأربعينية الحسينية يأتي تماشياً مع تطوّر النظرة الإيجابية للمرأة في العراق وفي مختلف الدول العربية، لا سيّما الخليجية منها، وانتقالها من العمل المنزلي إلى العمل الجماعي، وقدرتها على إثبات مهاراتها في مختلف الميادين الحياتية، سواء العائلية أو المهنية أو القيادية والتنظيمية.

لقد دخلت المرأة العراقية ساحة المشاركة الدينية في إقامة الشعائر وتنظيمها بأداء دقيق ومهارة عالية تجعل منها عاملة فاعلة لا يُستهان بها في تنفيذ المهام الموكلة إليها.

لذلك فإن عمل المرأة في الشعائر الدينية المشتركة هو انتقال جوهري، بانتقالها من

العمل الفردي المنزلي إلى العمل في الساحات الكبرى، ما يوجب تقديم الاعتزاز بها، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الإسلام كرّمها في عملها أينما كان، واعتبرها القاعدة الأولى في بناء المجتمع إذا ما سارت على السنن الإلهية والنبوية، وبخاصة سنة الرسول الأكرم وأهل بيته الأطهار صلوات اللّه عليهم أجمعين.

لقد شهد العراق تطوّراً نوعياً لعمل المرأة ومشاركتها الميادين العملية في مختلف الساحات، إلى العمل جنباً إلى جنب مع الرجل في أداء المهام الحياتية، وهذه الأعمال الميدانية لم تكن موجودة سابقاً، حتى وإن كانت في بعض جوانبها فبالتأكيد ليس بهذا المقدار، كما إن الكثير من الميادين كانت تفتقر إلى العنصر النسائي، وهذا ما يثبت تطوّر مهام المرأة في العقدين الأخيرين من عمر العراق، ولا سيّما المشاركة في مراسم أربعينية الإمام الحسين عليه السلام.

إن نظرة الغرب إلى المرأة العراقية من زاوية حرمانها من حقوقها هي نظرة سلبية، لا يقدم علاجات أو نظريات عادلة، إنما يستغل بعض العادات والتقاليد الاجتماعية لطرح أفكاره الهدّامة للمجتمع العراقي وتفكيك أسرته، وخلع ثوب الحياء من خلال بعض البرامج التي تتنافى مع التشريع الإسلامي.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. جعفر بن محمد بن قولويه: **كامل الزيارات**، تحقيق : الشيخ جواد القيومي، مؤسسة نشر الفقاهة، ط 1، 1417 هـ.
3. محمد بن الحسن الطوسي: **مصباح المتهجد**، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، ط 1، 1411 هـ/ 1991 م.
4. محمد بن علي ابن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق: **ثواب الأعمال**، تحقيق وتقديم السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، قم، ط 2، 1368 ش.
5. محمد بن محمد بن النعمان العكبري، المعروف بالشيخ المفيد: **المزار**، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1414 هـ/ 1993 م.

المقالات

1. حسن، سندس عباس: **المشاركة السياسية للنساء في العراق الفرص والتحديات**، موقع iKNOWPOLITICS الالكتروني، تاريخ النشر 26/ 5/ 2010، على الرابط: https://www.iknowpolitics.org/ar/2010/05/.
2. زيـدان، رضا: **أعـراق وديانات متنوعة في العراق.. كيف تتوزع؟ وما هي خصائصها؟**، موقع **الميادين** الالكتروني، تاريخ النشر 24/ 9/ 2021، على الرابط: https://www.almayadeen.net/news/politics.
3. قـره، ميرنا عيد: **كم نسبة الشيعة في العراق والـدول العربية 2022**، موقع **محتويات** الالكتروني، تاريخ النشر 18/ 6/ 2023، على الرابط: https://mhtwyat.com.

المواقع الالكترونية

1. **تعزيز المشاركة السياسية للمرأة في العراق**، تقرير صادر عن الأمم المتحدة، موقع **الأمم المتحدة العراق** الالكتروني، تاريخ النشر 8/ 3/ 2021، على الرابط: https://iraq.un.org/ar/116456-.

2. **جموع الزائرين الى كربلاء تصل ذروتها .. وضيافة العراقيين تتصدر مراسم «زيارة الأربعين»**، موقع **الوكالة الوطنية العراقية للأنباء الإلكتروني**، تاريخ النشر 17/ 9/ 2022، على الرابط: https://www.ninanews.com/Website/News/Details?key=1000699

3. موقع **شبكة الكفيل العالمية، العتبة العباسية المقدسة** الالكتروني:

ـ**(23.500) عدد المواكب والهيئات الحسينية المشاركة بموسم الأربعين 1435هـ**، تاريخ النشر 24/ 12/ 2013، على الرابط: https://alkafeel.net/news/index?id=1486&lang=ar

- **خدماتٌ نسويّة متميّزة قُدّمت في مجمّع العلقميّ الخدميّ**، تاريخ النشر 18/ 10/ 2020، على الرابط: https://alkafeel.net/news/index?id=11775&lang=ar

- **جهودٌ استثنائيّة بذلتها الملاكاتُ النسويّة في المضيف الخارجيّ للعتبة العبّاسية المقدّسة للزائرات**، تاريخ النشر 18/ 10/ 2020، على الرابط: https://alkafeel.net/news/index?id=11774&lang=ar

- **العتبةُ العبّاسية المقدّسة: عددُ زائري أربعينيّة الإمام الحسين عليه السلام بلغ أكثر من 16 مليون زائر**، تاريخ النشر 28/ 9/ 2021، على الرابط: https://alkafeel.net/news/index?id=13925&lang=ar

4. **ممثل الأرثوذكس في اسبانيا يتشرف بزيارة مرقد الامام علي عليه السلام/ مشاركة الزائرين من 80 دولة في الأربعين الحسيني**، موقع **وكالة الأنباء القرآنية الدولية** الالكتروني، تاريخ النشر 16/ 9/ 2022، على الرابط: https://iqna.ir/ar/news/3487723

5. **كربلاء .. إحياء أربعينية الإمام الحسين بحضور «21 مليون شخص»**، موقع **DW** الالكتروني، تاريخ النشر 17/ 9/ 2022، على الرابط:
/https://www.dw.com/ar

6. **الشيعة في العراق**، موقع **الأبحاث العقائدية** الالكتروني، شوهد بتاريخ 25/ 9/ 2022، على الرابط: https://www.aqaed.com/shia/country/iraq

7. **خطبة الجمعة لممثل المرجعية الدينية العليا في كربلاء المقدسة**، موقع مكتب **السيد السيستاني** الالكتروني، تاريخ النشر 14/ 8/ 1435هـ/ 13/ 6/ 2014 م، على الرابط: /https://www.sistani.org/arabic/archive/24918

8. **أصداء واسعة لملحمة الاربعين الحسيني وأكثر من 350 وسيلة إعلام محليّة ودوليّة تشارك في نقل وقائع الزيارة**، موقع **الهدى** الالكتروني، تاريخ النشر 20/ 10/ 2019، على الرابط: /https://al-hodaonline.com/article/6615

9. موقع **وزارة التخطيط العراقية**، شوهد بتاريخ 12/ 9/ 2022، على الرابط:
https://cosit.gov.iq/ar/?option=com_content&view=article&layout=edit&id=174&jsn_setmobile=no

10. **كربلاء .. إحياء أربعينية الإمام الحسين بحضور «21 مليون شخص»**، موقع **DW** الالكتروني، تاريخ النشر 17/ 9/ 2022، على الرابط:
/https://www.dw.com/ar

المقابلات

1. إيمان كاظم: مقابلة خاصة، مديرة مركز إعلام المراة والطفل التابع لقسم إعلام العتبة الحسينية المقدسة، بتاريخ 16/ 11/ 2022.

2. مآثر طالب جواد كاظم: مقابلة خاصة، رئيسة قسم الإعلام والعلاقات العامة في جامعة الزهراء للبنات؛ بتاريخ 4/ 9/ 2022.

مواقع الرأسمال الفرنسي في لبنان وسوريا في عهد الانتداب

د. علي نعيم(*)

تمهيد

تحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على الخلفيات الرأسمالية، التي لعبت دوراً في إحكام فرنسا سيطرتها على لبنان وسوريا، تحت مسمّى «الانتداب» الذي جاء كإفراز من إفرازات مؤتمر فرساي في العام 1919. فالانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا، الذي كان يرفع شعارات تتضمّن رسالة تمدينية لشعبي لبنان وسوريا، جاء في إطار تفعيل حركة تغلغل الرساميل الفرنسية في المشرق العربي، كما شكّل عاملا مسهلا لحركة الشركات والاحتكارات والرساميل الفرنسية، ويظهر هذا الاتجاه من خلال التصريحات التي أدلى بها غير مسؤول كبير في الإدارة الفرنسية، وكذلك من خلال توصيات غرف التجارة الفرنسية، لا سيّما في **ليون ومرسيليا**، والتي كانت ترسم خارطة الطريق للانتداب الفرنسي في المنطقة، بما يحقّق لأصحاب تلك الغرف ورساميلها وضع اليد على المواد الأولية اللازمة للصناعات الفرنسية، وتأمين الأسواق لمنتوجاتها الصناعية....

إنّ ما أشارت إليه مجلة **آسيا الفرنسية** يميط اللثام عن دوافع فرنسا من انتدابها على سوريا ولبنان، والقائمة على الاستثمار العنيف لموارد البلدين، فقد كتبت المجلة: «إن ترك سوريا والتنازل عن انتدابنا فيها، لا يعني إخفاقنا في الرسالة التمدينية التي كلفتنا

(*) دكتور جامعي وباحث في التاريخ الحديث والمعاصر.

بها الدول العظمى، بل يعني أيضاً حرمان فرنسا من نفوذها الأدبي، وحرمانها من نشر ثقافتها الفرنسية هناك، وتخليصها من مركز مراقبة هام، ومن قاعدة عمل في حوض البحر الشرقي، وعلى عتبة طريق آسيا، وفي قلب العالم الإسلامي. إنّه يعني أن نترك للغير سوقًا اقتصادية تكاد تتفتح، حيث تجد تجارتنا وصناعتنا ورساميلنا أسواقًا هامّة لنا» (L'Asie Française, Avril 1925, P 186).

كذلك، تبدو تلك التوجهات أكثر وضوحاً من خلال العمليات الحسابية، التي تبين لهم الفوائد التي ستعود عليهم من بيع السلع الفرنسية في السوق السورية، ولعلّ عنوان التقرير المركزي الذي أعدّه البرجوازي الفرنسي «هوفيلين» **«Que vaut La Syrie?»**، أي كم تساوي سوريا؟ خير دليل على الغاية النفعية التي يرجونها من بسط اليد على سوريا. فالمبدأ في نظرهم، لا يعدو كونه عملية استغلال وتحقيق أرباح، ليس إلاّ. ومن هذا المنطلق، اعتبرت سلطات الانتداب في سوريا ولبنان أنّ مهمتها الأساسية استيعاب الرساميل الفرنسية وتأمين نفوذها.

1 - الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا في خدمة الرأسمال الفرنسي

إنّ مقولة أن رجال المال يقفون وراء رجال الحرب والسياسة، ويدفعونهم في طريق الفتوحات والتوسع، ليس لإحراز المفاخر الوطنية، بل لإحراز المغانم المادية في كثير من الأحيان)الأرمنازي، 1973، ص31)، تنطبق أشدّ الانطباق على الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان؛ فالسيطرة الفرنسية عليهما وإحكام قبضتها على موارد البلاد، جاءت ترجمة للتوصيات والخطط التي كانت ترسمها غرف التجارة والشركات الاحتكارية الفرنسية، والتي كانت ترى في هذه البلاد مورداً هامًّا من موارد الكسب والثروة.

وعليه، فقد كانت تلك الغرف لا تتوانى عن التدخّل في كلّ التفاصيل، حتى في تحديد مهام بعض المفوضين الفرنسيين في سوريا ولبنان؛ فغرفة تجارة «ليون» كتبت إلى الجنرال غورو في اليوم الذي عُين فيه مفوضًا أنّها: «ستكون سعيدة باستقباله عند مروره بمدينة ليون لتسلّم وظيفته». وهذا ما حدث فعلاً؛ ففي 11 تشرين الأول عام 1919، أقامت غرفة التجارة في «ليون» استقبالاً حافلاً للجنرال غورو، وقدّمت إليه



«تمنيّات أهل الصناعة والتجارة في ليون»، والتي كان منها: إقرار عملة ثابتة في البلاد، ومنع قطع أشجار التوت، وإعادة غرسها، وفتح سوريا على عمليات استيراد البضائع (كوثراني، 1986، ص 302).

وكذلك تجدر الإشارة إلى أنّ رئيس تلك الغرفة كان قد رفع مذكرة إلى وزير الخارجية الفرنسية في العام 1915، طالب فيها باسم الغرفة، المحافظة على حقّ فرنسا في سوريا، وكانت تلك المذكرة قد أرفقت بتحليل سياسي واقتصادي يؤكّد علاقات فرنسا بسوريا منذ العصور الوسطى، وضرورة استمرار هذه العلاقات. (Turquie, Ministère des Affaires Etrangères Françaises V. 869, P. 25). كما وصل نفوذ تلك الغرفة إلى درجة، أبدت معها اعتراضها على اتفاق سايكس-بيكو، في مذكرة إلى وزير الخارجية الفرنسية في تشرين الأول عام 1918، لكون حصة فرنسا في هذا الاتفاق لا تنسجم مع طموحات وتوجهات الغرفة، فقد جاء فيها: «وقد بدت حصة فرنسا في سوريا مغايرة تمامًا لما كان يحق لنا أن نتوخّاه. فبعد تقليصها إلى مجرد شريط ساحلي، لم يعد لسوريا ذلك الطابع الجغرافي الذي كنّا نعرفه قبل الحرب؛ فقد اقتطعت منها ثلاث مناطق هامة هي حلب والموصل ودمشق، التي ستسند إلى إمارات عربية. بالإضافة إلى ذلك، فإن إنكلترة تحتفظ لنفسها بمرفأي عكا وحيفا، واعتبرت الاسكندرون مرفأً حرًّا. هكذا، أصبحت سوريا من الناحية الاقتصادية مصغّرة جدًّا». (Ministère des Affaires Etrangères Françaises, Syrie-Liban1918-1929, V.3,P.192-193)، لذلك طالبت المذكرة بتعديل الاتفاق، لتبقى حصة فرنسا وافية بمطامع تجّار مدينة «ليون».

بالموازاة، وعلى هذا الأساس، برز دور غرفة تجارة «مرسيليا» في توجيه السياسة الفرنسية في المشرق، وإلى هذا أشار النائب الفرنسي «فيكتور برارد» في خطابه الذي ألقاه في مجلس الشيوخ الفرنسي بتاريخ 24 حزيران عام 1923، فقد أوضح أنّ تعلّقهم بسوريا كان بناءً على توصية غرف التجارة في ليون ومرسيليا، التي نظرت إلى سوريا كسوق لتصريف بضائعها.

وبلغ مستوى تحكّم غرف التجارة في «ليون» و«مرسيليا» و«ريمس» في الأداء

السياسي الفرنسي في المشرق درجة عالية؛ فحينما أثيرت في العام 1926، ضجّة عن قرب رفع فرنسا يدها عن سوريا ولبنان، انتفضت غرف التجارة تلك، وراحت تدعو أعضاء مجالس إداراتها لاتخاذ قرار يدين الموقف الفرنسي، ويضغط على الحكومة الفرنسية من أجل استمرار الانتداب في المشرق. وعليه، بادرت غرفة تجارة ليون إلى عقد اجتماع في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني عام 1926، وتمّ اتخاذ مقررات رُفعت إلى رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية ومجلسي الشيوخ والنواب، والمفوضية العليا للانتداب في سوريا ولبنان، وإلى جميع غرف التجارة في فرنسا.

وتضمّنت تلك المقرّرات إدانة صريحة لفكرة التخلّي الفرنسي عن سوريا ولبنان. وجاء في تقريرها: «إنّ التقرير السنوي الذي أعدّته سلطة الانتداب وموضوعه إمكان التخلي عن الانتداب على سوريا، يشكّل إنكارًا لحقوق تاريخية قديمة. ففرنسا لم تأخذ بعين الاعتبار الماضي الطويل من الجهود المضنية التي قمنا بها، وعلى الأخصّ في فتح الروح السورية على إشعاعنا وتجارتنا، التي استوعبت كثيرًا من الجهود التي تكفّلت بها أجهزتنا» (Ministère des Affaires Etrangères Françaises Syrie-Liban 1918-1929, V. 225, P.15-16).

كذلك، اتخذت غرفتا التجارة في «**مرسيليا**» و«**ريمس**» قرارات مشابهة. وجاء في تقرير رفعته غرفة «ريمس» التجارية إلى وزارة الخارجية والحكومة الفرنسية، طلبٌ مؤكّد إلى الحكومة الفرنسية للتخلي عن فكرة إنهاء الانتداب، وأشارت إلى أهمية اتساع دائرة التأثير الفرنسي فيها. هذا ما فعلته غرفة التجارة في «مرسيليا» (Ministère des Affaires Etrangères Françaises, Syrie-Liban 1920-1930. V. 411, P.160).

وفي إطار إرضاء تلك التوجهات والتوصيات، أحكمت فرنسا قبضتها على سوريا ولبنان، وتحكّمت بمجمل التطور الاقتصادي والسياسي فيهما، وأخضعت اقتصادهما لتبعية تامّة للرساميل الفرنسية، التي مارست نهبًا منظّمًا لموارد وخيرات البلدين، إلى حدّ لم يصل إليه النهب حتّى في أحلك أيام الحكم العثماني (لوتسكي، 1987، ص 95).

كذلك، تجلّت الأطماع الاقتصادية الفرنسية، من خلال الدراسة التي أمر بها

الجنرال غورو، عندما أراد أن يتعرّف على ما يمكن أن تقدّمه سوريا من محاصيل سنوية للاقتصاد الفرنسي. وتوصّلت الدراسة إلى النتائج الآتية: 3 ملايين طن من الحبوب، و100 ألف طن من القطن في منطقة الانتداب الحالي (لبنان وسوريا)، و5 ملايين طن من الحبوب، و400 ألف طن من القطن بين لبنان ونهر دجلة... كذلك، أشارت الدراسة إلى شبكة الطرق والخطوط الحديدية، التي تمكنهم من التغلغل في الداخل حتى بلاد ما بين النهرين. وخلصت الدراسة إلى أهمية العودة إلى مناقشات غرف التجارة في ليون ومارسيليا، لتبيّن مدى اتساع المجال الذي يمكن أن تفتحه سوريا، أمام النشاط التجاري الفرنسي .(L'Asie Française, No 192. 1921, P. 197).

2 - القطاعات الاقتصادية في لبنان وسوريا في قبضة الرأسمال الفرنسي

من خلال ما تقدّم أعلاه، يتبيّن بوضوح مدى حرص الاحتكارات والرساميل الفرنسية على أن تمسك بزمام القطاعات الاقتصادية في لبنان وسوريا، وتوجيهها بما يحقّق مصالحها الخاصة، المستندة إلى ضرورة تحقيق المكاسب والأرباح، وربط اقتصاد البلدين بعجلة السوق من أجل خدمة المصالح الفرنسية في المراكمات الرأسمالية من ناحية، وفي تحقيق تفوّق اقتصادي وسياسي في وجه بريطانيا، ذات النفوذ المزاحم لفرنسا في المنطقة من ناحية أخرى.

وتحقيقًا لهذه الأهداف، أحكمت الرساميل الفرنسية القبضة على القطاعات الاقتصادية في لبنان وسوريا، ومارست عملية استنزاف لموارد البلدين بشكل عنيف. أمّا أبرز القطاعات التي خضعت لتلك الهيمنة، فكانت على الشكل الآتي:

2 ـ 1 ـ قطاع الحرير

مع إحكام سلطات الانتداب قبضتها على لبنان وسوريا، ركّزت الرساميل الفرنسية على استغلال الحرير اللبناني والسوري، الذي شكّل مادّة أولية مهمّة للصناعات النسيجية الفرنسية، لا سيّما في مدينة «ليون» التي ارتبط اقتصادها تاريخيًا بالحرير السوري واللبناني، نتيجة اعتماده بنسبة كبيرة عليه كمادة أولية لصناعاته النسيجية المشهورة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ركّزت سلطات الانتداب الفرنسي جهودها

لإنعاش صناعة الحرير، لا سيّما بعد التقهقر الذي لحق بها من جرّاء الأعمال الحربية. وفي هذا المجال قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي: «لي الشرف أن أعلم مجلس الشيوخ، أنّ غرفة تجارة ليون والصنّاع وأصحاب البنوك فيها، يبذلون الجهود الواسعة لإنعاش تربية الحرير في لبنان، وخاصة من أجل إعادة تسيير معامل غزل الحرير هناك» (L'Asie Française. No 191. 1921, p. 206).

إشارة إلى أنّه في العام 1924، بلغ إنتاج الحرير 2,800,000 كلغ، توزّع على الشكل التالي: لبنان الكبير1,500,000 كلغ، دويلة العلويين 700,000 كلغ، والإسكندرونة 600,000 كلغ (علي، لا تاريخ، ص 292).

كان تصدير الحرير اللبناني والسوري إلى فرنسا يسدّ قسمًا مهماً من حاجة الأسواق وغرف التجارة الفرنسية، وكانت عملية تصديره تتمّ إما على شكل شرانق أو على شكل خيطان، بعد أن يتمّ إخضاع الشرانق لعملية الغزل. وفي كلتا الحالتين، كان الرأسمال الفرنسي هو المحتكر لهذا الإنتاج، حيث كان يستثمر الفلاح والمنتج للشرانق والعامل، الذي يقوم بعملية الغزل.

وكدلالة على الاهتمام بهذه السلعة، فقد اتسعت الرقعة الزراعية المزروعة توتًا، بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تمّ غرس 7 ملايين غرسة من التوت، الأمر الذي انعكس زيادة في إنتاج الحرير، إذ وصل في العام 1930، إلى ٪1,6 من الإنتاج العالمي للحرير الطبيعي، صدّر كله إلى فرنسا (حنا، 1978، ص 32).

إلى جانب الحرير، برز الاهتمام الفرنسي بالقطن السوري، وراح الرأسمال الفرنسي يسعى إلى تحويل شمال سوريا إلى «مزرعة للقطن»، تنتج أنواعًا جديدة من القطن الرخيص الثمن، وذلك من أجل تقليص الاستيراد من الولايات المتحدة. (خوري، 1997، ص 67).

2 ـ 2 ـ قطاع التبغ

كانت زراعة التبغ وصناعته من المجالات الهامة التي ولجتها الاستثمارات الفرنسية، في وقت شكلت هذه الزراعة مصدر رزق لشرائح اجتماعية واسعة في لبنان وسوريا، لذا اتسعت دائرة الاهتمام بها لتشمل المزارعين والصنّاع والمستهلكين على السواء.

أمّا ممارسة هذه الزراعة فكانت تنظّمها شركة الريجي الفرنسية كحقّ حصري لها، وبناءً عليه، عملت هذه الشركة على حصر زراعة التبغ في مناطق معينة، ليتسنّى لها حصر الإنتاج ومراقبته، ومكافحة زراعة المساحات من الأراضي غير المحدّدة في الترخيص لكل مزارع. وعلى هذا الأساس، أصبح لزامًا على كل مزارع يريد زراعة التبغ، أن يحصل على إذن من الشركة حتى يكون عمله «شرعيًا». ولم يكن الحصول على الرخصة أمرًا سهلاً، نظرًا لما يتطلبه ذلك من معاملات وشروط، ليس أقلّها أن يكون بتصرف المزارع مساحة من الأرض صالحة لزراعة التبغ لا تقل عن نصف دونم، وأن تكون محاطة بسياج (شعيب، 1987، ص12)، وأن لا تكون المسافة الفاصلة بينها وبين المدينة أقل من ثلاثة كيلومترات. ولمّا لم تكن المساحة المطلوبة من الأرض متوفرة، كان المزارع طالب الرخصة يلجأ إلى استئجار أرض ولو بأسعار مرتفعة، ومن لا يستطيع أن يستأجر أرضًا إضافية يحرم من تلك الزراعة، التي ورثها أبًا عن جدّ. إضافة إلى ذلك، كان بعض المزارعين يضطرون إلى الاستدانة لتسييج الأرض تلبية للشروط، كما كانوا مضطرون لإرضاء أصحاب العلاقة، ليفيدوا بأنّ أرضه صالحة لزراعة التبغ.

من خلال ما تقدم، فإنّ القوانين والشروط» التعسفية» كانت تطال صغار المزارعين، أمّا كبار الملاكين والمتنفّذين لدى السلطة، فكانت لهم الحظوة عند الشركة، لا بل أكثر من ذلك، كانوا يستفيدون من توظيف أبنائهم في هذه الشركة ليكونوا مراقبين وأداة تنفيذية، تستعين الشركة بخدماتهم في عملية استثمار الفلاحين الذين كانوا يخضعون لشروط العمل القاسية. هذا، عدا عن ابتزاز المستهلك بالأسعار المرتفعة و«الملاحقات والتحريات وإراقة الدماء وفرض الغرامات، وانتهاك حرمة البيوت وحريات الإنسان وكرامته» (السباعي، 1967، ص 42). وكذلك، فإنّ تفاصيل السياسة التي اعتمدتها الشركة في تعاطيها مع المزارعين، جعلت منها رمزًا للنهب وجمع الأرباح من المنتجين والعمال والمستهلكين، وكان على العوام تحمّل التبعات، وتقبّل ما يلحق بهم من خسائر في هذا القطاع.

في هذه الأثناء، كان على المزارع أن يحمل محصوله إلى أقرب فرع من فروع الشركة لبيعه، حيث تجري عملية تخمين الثمن والبيع، كما كان عليه أن يتحمّل نفقات

هذا النقل مهما بلغت. وعلى جري عادتها في التحكم برزق المزارع، لم تكن الشركة تشتري التبغ منه إلا بأسعار بخسة، لا تفي بتعبه وبالنفقات التي تكبدها في الإنتاج، فضلاً عن أنها كانت لا تؤمّن الحدّ الأدنى من العيش الكريم له ولأسرته. لهذا، أصبح أسيرًا للمرابين الذين يستغلّون حاجته، فيطلبون الفوائد الكبيرة على القروض التي يقدمونها له، وفي كثير من الأحيان كان يضطر العديد من أولئك الفلاحين إلى بيع أراضيهم لأصحاب القروض، فبعد أن كانوا مالكين، أصبح هؤلاء المزارعون يعملون ويشقون عند أصحاب الأرض، ويتعرّضون لصنوف الابتزاز والاستغلال.

وفي الوقت الذي كانت تشتري فيه إنتاج التبغ من المزارعين، كانت شركة الريجي الفرنسية تصنّع السجائر في سوريا، حيث كان لها مصنعان، أحدهما في دمشق والآخر في حلب، يعمل فيهما 200 عامل. أمّا الإنتاج، فكان يتم بيعه داخل سوريا عبر باعة وطنيين، حصلوا على هذا الحق مقابل شروط فرضتها الشركة عليهم، وكانت الشركة هي الجهة الوحيدة المخوّلة تحديد الأسعار، وليس الحكومات المحلية.

ولاحقًا، وجد الفرنسيون الفرصة مؤاتية للعمل على توسيع احتكار التبغ وتصنيعه وتسويقه، إلا أنّ هذا الاحتكار أتى بنتائج عكسية؛ فقد تقلصت المساحة المزروعة بالتبغ إلى ما دون الألفي هكتار بين العام 1920 والعام 1929. أمّا الإنتاج فلم يتجاوز 12000كنتال. وفي العام 1927 بلغت المساحة المزروعة 1853 هكتارًا والإنتاج 11700 كنتال، توزّعت وفق الجدول الآتي:

الجدول الرقم (1)

المساحات المزروعة تبغًا وحجم الإنتاج في العام 1927

المنطقة المنتجة للتبغ	المساحة المزروعة تبغًا	حجم الإنتاج
دولة لبنان الكبير	1100 هكتار	6500 كنتال
دولة العلويين	700 هكتار	5000 كنتال
دولة سورية	53 هكتارًا	53 كنتال

يتبيّن من أرقام الجدول الأهمية الإنتاجية للبنان الكبير مقارنة بالدويلات السورية الأخرى (مراد، 1993، ص 96)، حيث فاقت المساحة المزروعة فيه نظيرتها في الدويلتين الأخريين، وهذا ما ينطبق على حجم الإنتاج أيضًا.

قبل انتهاء مدة عقد شركة الريجي عام 1929، قامت في سوريا ولبنان حملة واسعة من الاعتراضات المطالبة بعدم تجديده، إلا أن المفّوض الفرنسي مدّد الامتياز لثلاثة أشهر، اعتبارًا من 15 نيسان 1929، ثم مدّده مرّة أخرى إلى نهاية العام. لم يمرّ هذا التمديد دون حصول المزيد من الاعتراضات، من قبل الجماهير في سوريا ولبنان ضد الشركة، لكنّ الانتداب الفرنسي لجأ إلى أسلوب «تكتيكي» آخر قضى باستبدال نظام الحصر بنظام «البندرول»، وفقًا للقرار الصادر في 30 أيار 1930، ويقضي بوضع ملصق صغير على منتجات التبغ كعلامة على سداد الضريبة المستحقة. وبناءً عليه، فقد ألغي نظام الحصر اعتبارًا من أول حزيران 1930، في جميع أراضي الحكومات المشمولة بالانتداب، وبموجب نظام «البندرول» هذا، أصبحت زراعة التبغ وتجارته حرّة في جميع المناطق، لقاء «علم وخبر» يقدّم إلى وزارة المالية، مقابل» تمغة «توضع عليه. أمّا التاجر، فكان يتوجّب عليه أن يحصل على إجازة لنقل التبغ. وكذلك، توجّب على صاحب المصنع أن يدفع ضريبة للمالية، كانت عبارة عن «تمغة» تلصق على كل علبة سجائر.

كان بيع الطوابع التي فرض اعتمادها حقّا حصريًا للدولة، وكان معدل رسم «البندرول» يختلف بحسب اختلاف سعر المنتج بالمفرّق، لكنّها كانت في الأصل رسمًا مقطوعاً قيمته 25 ٪، بيد أنّه تغيّر فيما بعد إلى رسم متدرّج، تختلف نسبته باختلاف سعر العلبة أو الصندوق بالمفرّق (بزّي، 2002، ص 195).

لم تهدف سلطات الانتداب من النظام الجديد تقوية دعائم فرع هام من فروع الاقتصاد في لبنان وسوريا، ولا تنمية موارد الحكومات الوطنية، ولا إنقاذ فئات المزارعين والمستهلكين من استغلال الشركة، بل كان الهدف منه امتصاص نقمة الجماهير تجاه نظام الحصر السابق، والتبيان لهم أن مزايا هذا النظام (الحصر السابق)، هي أفضل من مزايا النظام الجديد، وتوجيه نقمة المزارعين والمستهلكين

والصنّاع والتجار ضدّ النظام الجديد، و« الترحّم» على عهد الريجي السابق، وذلك بهدف تسهيل العودة إليه واعتماده (السباعي، 1967، ص 172_173).

أدى اعتماد نظام «البندرول» إلى إطلاق حرية زراعة التبغ، فراح «المتموّلون اللبنانيون والسوريون يوظّفون أموالهم بحريّة، في مختلف المشاريع الزراعية والصناعية العائدة لهذا القطاع الاقتصادي» (جحا 1995، ص 390)، وهذا ما جعل المساحات المزروعة العام 1931، تصل إلى أقصى حدّ لها، فبلغت في لبنان 2800 هكتاراً، وفي دويلة العلويين 2500 هكتاراً، وفي دويلة سوريا 2600 هكتاراً، كما وصل الإنتاج إلى 13500 كنتال في لبنان، و25000 كنتال في دويلة العلويين، وفي دويلة سوريا 11350 كنتالا (p 130 De Monicault ,1936,).

نتج عن هذا التوسع في زراعة التبغ، مشكلة تمثلت بصعوبة تصريف الإنتاج من جهة، وبتدني الأسعار من جهة ثانية، الأمر الذي خلق مشكلة جديّة في الأوساط المنتجة، كان من نتائجها تراجع في المساحة المزروعة وفي حجم الإنتاج.

في غضون ذلك، لجأت المفوضية الفرنسية إلى تخفيض الرسوم على الدخان الأجنبي على حساب الإنتاج المحلي، وعمدت بعدها إلى وضع العراقيل والمعوقات، أمام وحدة الموقف بين أصحاب المعامل اللبنانية وأصحاب المعامل السورية، من خلال وضع ضريبة «بندرول» متفاوتة بين الإنتاج اللبناني والإنتاج السوري، فقد فرضت ضريبة 50٪ على الأصناف الأكثر استهلاكًا، و40 ٪ على عموم الأصناف الوسطى للإنتاج السوري، في حين كانت الضريبة على الإنتاج اللبناني 25٪ على عموم الأصناف، وهذا ما أدّى إلى تنشيط عملية التهريب من إنتاج المعامل اللبنانية إلى الأراضي السورية، لأنها أرخص تكلفة، وبهذه الحالة تلهّى المنتجون اللبنانيون والسوريون في تسوية الوضع القائم، دون النظر إلى نظام الريجي وإصلاحه (القبس، 17_11_1932، ص 5).

استغلت المفوضية الفرنسية المساوئ الناجمة عن تطبيق نظام «البندرول»، لجهة إباحة زراعة التبغ غير المقيدة، وما نتج عنها من كساد في المواسم بفعل اتخام الأسواق بالتبغ، والفوضى في تصريف الإنتاج، لا سيما عند صغار المزارعين الذين كانوا

يلجأون إلى الاستعجال في بيع مواسمهم بأي ثمن لتفادي فوائد المرابين، فقررت إلغاء «البندرول»، والعودة إلى نظام الحصر «المونوبول». ولم يكن هذا النظام أفضل من سابقه، إذ إنّه قيّد المزارعين والمستهلكين في المناطق السورية واللبنانية بالعديد من الشروط القاسية، نتج عنها موجة عارمة من الاحتجاجات ضدّ السياسة الفرنسية، كانت مدخلاً لتوحيد الصف بين القيادات اللبنانية والسورية، وبالتالي خرجت قضية التبغ عن كونها مسألة اجتماعية ـ اقتصادية، لتصبح ذات صبغة سياسية، أسهمت في تمتين الروابط بين الشعبين السوري واللبناني، المرتكزة على المطالبة بتحديد نهاية سريعة للانتداب الفرنسي، ورفع يده عن الثروات الوطنية.

2 ـ 3 ـ القطاع المالي

بعد بسط سيطرتهم على لبنان وسوريا، أنشأ الفرنسيون «**بنك سوريا ولبنان الكبير**» الذي أنيط به التخطيط لأوضاع سوريا ولبنان الاقتصادية، وكان بذلك فاتحة العمليات الاستثمارية الفرنسية في البلدين، التي أخذت تتوسّع في جميع المجالات الحيوية السورية ـ اللبنانية، وحظي هذا البنك بنفس الامتيازات والضمانات والحقوق، التي كانت للبنك الإمبراطوري العثماني، وانتقلت هذه الامتيازات والضمانات إلى الدول التي تحلّ محل تركيا في سوريا. وجاء في برقية من البنك إلى وزير المالية الفرنسية بتاريخ 10 أيار 1920: «لنا شرف إعلامكم أنّه إثر المباحثات مع جمعيات باريس ولندن للمصرف الإمبراطوري العثماني، توصّلنا إلى اتفاق مبادئ يقوم على التخلي الكامل عن كلّ الوكالات لهذه المؤسسة، في الأراضي الواقعة تحت الانتداب الفرنسي» (Ministère des Affaires Etrangères Françaises. Syrie-Liban,1918-1940, V.72, P.129-131).

بلغ رأسمال هذا المصرف في بداية انطلاقته 10 ملايين فرنك، ثم ما لبث أن ارتفع إلى 25 مليونًا في العام 1920، ثم إلى 119 مليونًا العام 1928. وأنشئت فروع له في بيروت ودمشق وحلب، والإسكندرونة، وإنطاكية، وحمص وحماه وإدلب واللاذقية وصيدا وطرابلس وزحلة (Ministère des Affaires Etrangères Françaises. Syrie-Liban,1918-1940, V.72, P.129-131). كما أعطي المصرف امتيازات لم تُعط لأي مصرف آخر، وذلك لكون معظم المساهمين فيه من الفرنسيين.



ومنذ 31 آذار 1920، تحوّل البنك بموجب قرار صادر عن المفوض الفرنسي إلى بنك إصدار، فكانت «الليرة السورية ـ اللبنانية» الوحدة النقدية الأساسية التي أصدرها، وفرض اعتمادها في «الدول المستقلة تحت الانتداب الفرنسي. وبناءً على ذلك القرار، تولى البنك إصدار النقود ووضعها في التداول في المنطقة الغربية، وبدأ بسحب العملة المصرية المتداولة وإبدالها بالجديدة، بمعدّل 325 قرشًا سوريًا لكل جنيه مصري.

قسّمت الليرة السورية- اللبنانية إلى 100 قرش، وتمّ سكّ وحدات معدنية من فئات:25 و50 و100 قرش، كما كان لها وحدات مضاعفة، تكونّت من فئة الليرة و5 و10 و25 و50 ليرة (زين الدين،2009، ص 469).

بدأ المصرف إصداراته النقدية بكميات كبيرة من الفرنكات، بدأت بقيمة (179,557) فرنكًا في كانون الأول 1920، ووصلت إلى 215 مليون فرنك العام 1922، وارتفعت قيمة موجوداته من الذهب من مستوى 39 مليون فرنك عام 1925 لتصل إلى مستوى 500 مليون عام 1930. (ضاهر، 1984، ص 128).

أما تغطية النقد السوري -اللبناني، فكانت عبارة عن سندات مودعة في الخزينة الفرنسية، ومن بينها سندات تجارية، لا تتجاوز ٪7 من مجموع الأوراق المتداولة، ولا تزيد عن مليون ليرة سورية، أمّا الذهب فكانت نسبته الوسطية لا تتعدّى ٪5، وهي نسبة ضئيلة (السمّان، 1955، ص 98).

جاء ربط الليرة بالفرنك الفرنسي، في وقت كانت فيه فرنسا تعاني من تضخّم نقدي خطير، ما أدى إلى ضعف الثقة بالفرنك، وقلة الطلب عليه من قبل أصحاب الرساميل، وهذا ما جعله في وضع مزرٍ، لذا كان من الطبيعي جدّا أن تضعف قيمة الليرة المرتبطة به؛ فقد كانت تسير معه في جميع تقلباته، الناتجة عن السياسة الفرنسية الكثيرة التقلّب، فكانت ترتفع بارتفاعه، وتهبط بهبوطه. ونتج عن الهبوط المستمر خسائر فادحة للمتعاملين بها، ما أدّى إلى ضعف القدرة الشرائية لهذا النقد.

كانت قيمة الفرنك تهبط باستمرار، حتى أصبحت قيمته أقل بأربع مرّات مما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى. وعند بداية اندلاع ثورة العام 1925، كان سعر العملة

السورية الورقية أدنى بـ4,2 مرات من قيمتها الذهبية الاسمية، وبستّ مرّات أثناء الثورة عام 1926 (لوتسكي 1987، ص 96)، لذلك لم يتشجّع الناس على التعامل بها، واستمرّوا بالتعامل بالنقود الذهبية، والمتاجرة بسبائك الذهب والفضة والبلاتين.

عندما برزت الليرة السورية اللبنانية كعملة للتداول، كانت تساوي 40 قرشًا ذهبيًا، ثم بدأت قيمتها تتأرجح بحسب تقلّبات السياسة الاقتصادية الفرنسية صعودًا وهبوطًا، حتى أصبحت في آذار عام 1944 تساوي ثلاثة قروش، الأمر الذي كان له وقع كارثي على أهل البلاد. والجدير بالذكر، أنّ سوريا ولبنان كانا يملكان من الذهب ما قيمته 40 مليون ليرة قبل إصدار العملة السورية اللبنانية، فأصبح هذا الرقم لا يتخطى عتبة المليوني ليرة، في أواخر عهد الانتداب.

لجأ الفرنسيون إلى سحب المدّخرات الذهبية من سوريا ولبنان، وجاء هذا الإجراء في سياق الإضعاف المتعمّد لتغطية الليرة السورية- اللبنانية بالذهب (مراد 1993، ص 152)، ومن أجل إرسالها إلى فرنسا، بهدف تمكين بلدهم من زيادة ودائعه، وتحقيق البنك لأرباح مالية طائلة، عبر إبدال النقد الذهبي المتوفّر لدى المواطنين، بنقد ورقي لا قيمة له. لذلك، لم تتوانَ سلطات الانتداب عن اعتماد أي إجراء، من شأنه سحب الذهب من أيدي المواطنين. ووصلت بها الأمور لتجبر الناس على دفع الغرامات بالذهب. كذلك كانت الشركات الفرنسية لدى شرائها منتجات الفلاحين تدفع ثمنها بالنقود الورقيّة، وكانت النتيجة استغلالا فاحشًا للفلاحين، وإفراغ الأرياف من المدّخرات الذهبية، وتحويلها إلى البنوك الباريسية.

وقد جاء في برقيّة وزير المال الفرنسي إلى وزارة الخارجية، بتاريخ 21 آذار 1921: «أطلب منكم الشراء لحساب الخزينة بأوراق نقديّة سورية، وبالشروط المحدّدة ببرقيتكم في 17 آذار ما أمكن من عملة ذهبية.... العملة التي تحصلون عليها، يجب أن ترسل إلى بنك فرنسا في أقرب فرصة ممكنة...» (Ministère des Affaires Etrangères Françaises. Syrie-Liban.1918-1940, V.65, P. 245)، كما حملت برقية مماثلة من وزير المالية الفرنسية إلى المفوّض الفرنسي، بتاريخ 4 شباط 1920 التوجّه ذاته، إذ أعرب الوزير عن أن مصرف سورية يأمل بالدخول في عمليات

الذهب في سوريا، عارضًا سحب الكميات الذهبية التي هي خارج نطاق الحاجة، لأن شراء الذهب هذا بالعملة السورية، يعتبر تسهيلاً ماديًا كبيرًا للخزينة (Ministère des Affaires Etrangères Françaises. Syrie-Liban.1918-1940, V.72, P.116) وكنتيجة لهذا التوجّه، تمكن البنك من تحويل قسم هائل من نقوده الورقيّة إلى ذهبيّة لحسابه في باريس.

وهكذا كانت أرباح البنك تذهب إلى مركز الرأسمال الفرنسي في باريس، في وقت كانت الخسارة تلحق بالسكان المحليين. كما تشير الإحصاءات إلى أنّ الخسائر التي تكبّدها الاقتصادان اللبناني والسوري، جرّاء تحويل الذهب إلى أوراق نقدية، قدّرت بـ 10 ملايين ليرة تركية، خلال الحقبة الممتدة بين العامين 1919 و1926 (ضاهر 1984، ص 129)، أمّا الأرباح التي حققّها البنك، فقد بلغت العام 1925 ما قيمته (2,958,785) فرنكًا فرنسيًا، وفي العام 1927 ارتفعت الأرباح إلى (3,694,125) فرنكًا، وفي العام 1928 وصلت إلى (4,116,176) فرنكًا. لكنّ تلك الأرباح بدأت تأخذ منحى تنازليًا، ابتداءً من العام 1932، حيث انخفضت إلى (2,675,784) فرنكًا، وإلى (1,964,537) فرنكاً في العام 1934. وتعود أسباب هذا التراجع إلى تداعيات الأزمة الاقتصادية العالمية على الاقتصاد الفرنسي من جهة، وإلى التقلبات المستمرة في الأوضاع الاقتصادية الداخلية لفرنسا في تلك المرحلة (مراد، 1993، ص 151–152). أمّا في العام 1939، فقد ارتفعت أرباحه وبلغت (13,518,089) فرنكًا، بعد حسم جميع المصاريف على الإطلاق (حبّوش، لا تاريخ، ص 10).

لقد استطاع بنك سوريا ولبنان بما له من «جبروت»، أن يظهر كأقوى مؤسسة فرنسية سيطرت على الاقتصاد السوري واللبناني، وأن يكون له تأثير ملموس في سياسة البلدين. بل أكثر من ذلك، ما عبّر عنه المفوّض «هنري ده جوفنيل» بقوله: «إنّ البنك السوري يعتبر سوريا ملكًا له» (السباعي 1967، ص 95)، في إشارة واضحة إلى مدى النفوذ الذي كان يتمتّع به، ويفرضه حتى على المفوّضين السامين أنفسهم.

إضافةً إلى ذلك، كان التشريع الاقتصادي المحتكر، الذي جسّدته المفوضية العليا خاضعًا لرغبات البنك ولمصلحة المساهمين فيه والقائمين على إدارته، ويؤكد نجيب

الأرمنازي حقيقة هذا النفوذ بقوله: «وظل ذا شأن كبير في إدارة دفّة السياسة الفرنسية في البلاد، حتى كانت الحكومات المتعاقبة يُطلب منها دائمًا، أن يبقى هذا الأمر قيد نظرها. وكل اتجاه يُعارض ذلك يصح أن يُعدّ عملا معاديًا» (الأرمنازي 1973، ص 31)، ووصلت به الأمور ليدفع معاشات كبيرة لبعض أصحاب النفوذ من الوطنيين، تحت عناوين متنوّعة بهدف إسكات ألسن النّقاد عن التجاوزات والمخالفات، التي كان يقوم بها في عملياته الاستثمارية (حنّا، 1946، ص 74).

من خلال ما تقدم، يبدو جليًا كيف برز بنك سوريا ولبنان كأقوى مؤسسة مصرفية فرنسية، مارست نفوذًا غير محدود في سوريا ولبنان، وأدّت ارتكاباته إلى إلحاق أفدح الأضرار الاقتصادية بالبلاد، لذا اتهمته جريدة «القبس» الدمشقية بالاستغلال وامتصاص خيرات البلاد، وكان مما قالته: «ماذا فعل هذا البنك ورجاله القائمون على إدارته في باريس وبيروت ودمشق، سوى أنّه أقرض الحكومة وقبض الفائدة وأدان البلديات، وانتفع من ربح ديونه؟ وإذا كان من مشروع اقتصادي أو تجاري أو صناعي أو زراعي ، فهو يدخل شريكًا فيه ليحقق أرباحه، وأي شركة مساهمة أدانها؟.... إن بنك سوريا ولبنان لا يريد أن يكون أكثر من صرّاف كبير ومرابٍ غني، له الغُنم وعلى هذه الأمة الغُرم». (القبس 7ـ11ـ1934، ص 6).

لم يكن بنك سوريا ولبنان هو الوحيد في الساحة المالية في هذين البلدين، فقد كان إلى جانبه العديد من المؤسسات المصرفية الفرنسية، وبعضها كان يرجع إلى العهد العثماني، كما لعب دورًا بارزًا في ربط البلاد بعجلة الرأسمال الفرنسي.

اتجه معظم هذه المصارف نحو تقديم التسليفات المالية القصيرة الأجل، ونحو الاستثمار في مجالات المواصلات والمرافئ والسكك الحديدية والكهرباء وغيرها.. وأهم هذه المصارف:

- **البنك الفرنسي السوري**: الذي كان قد تأسّس في كانون الأوّل 1918، من قبل الشركة العامّة الفرنسية التي تأسّست سنة 1864 من عدّة بنوك، وانحصرت مجالات عمله في الصرافة التجارية العامة.
- **البنك العقاري الجزائري**: الذي بدأ أعماله في العام 1921 في بيروت، وفتح

فروعًا له في حلب ودمشق 1930، وفي طرابلس العام 1931.

- **البنك العقاري السوري**: الذي كانت الشركة العامة قد أسّسته سنة 1919، لتقديم القروض وفتح الاعتمادات، مقابل رهون وغيرها من الضمانات.
- **الشركة الجزائرية**: التي كانت قد تأسّست سنة 1877، وبدأت أعمالها في العام 1931، بافتتاح فرع لها في بيروت وآخر في طرابلس.
- **بنك التسليف «الليوني»**: الذي كان يشرف على صناعة الحرير في لبنان.
- **البنك الزراعي لدولة لبنان الكبير**: الذي بدأ عمله سنة 1926 برأسمال قدره (269,000) ليرة سورية، ولم يكن يُعطِي قروضًا للمزارعين إلا مقابل رهن على الأرض، على أن لا يتجاوز المبلغ ألفي ليرة سورية، تُدفع على مدى خمس سنوات، بهدف استصلاح مساحة كبيرة من الأرض. وبالتالي، تحوّل إلى أداة هامة لدعم الإقطاعيين الموالين للانتداب (ضاهر 1984، ص 131).

اقتصرت التوظيفات المالية الفرنسية على القروض وتسليف التجار، وحرمت منها القطاعات الاقتصادية المنتجة، وبالنتيجة، فإن المؤسسات المصرفية الفرنسية لم تكن سوى مؤسسات تجارية صرفة، لا تنظر إلى الاقتصاد السوري واللبناني إلا من زاوية مصالحها الخاصة وتحقيق الربح السريع (فتّال وسكّرية، 1988، ص 242).

2 ـ 4 ـ قطاع الخطوط الحديدية والمرافئ البحرية

أولى الفرنسيّون موضوع الخطوط الحديدية والمرافئ البحرية عناية كبيرة، حيث كان مدّها في أرجاء هذه المشرق العربي أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة للرأسمالية الفرنسية، نظرًا لدورها المهم في تمكين الرساميل الفرنسية من التغلغل في هذه المنطقة، وتحقيق مصالحها المرتكزة على تصريف إنتاجها السلعي، والتزوّد بالمواد الأولية اللازمة لمصانعها. لذلك، جاء إنشاء هذه الخطوط مراعيًا في تفاصيله لمصالح تلك الدول، لا مصالح اقتصادات هذه الشعوب.

تجدر الإشارة إلى أنّ فرنسا كانت قد دشّنت مدّ الخطوط الحديدية في سوريا بدءًا من العامين 1890ـ1891، بالتعاون مع الرأسمال البلجيكي، ثم ما لبث الرأسمالان الفرنسي والبلجيكي أن اندمجا في شركة جديدة، هي «الشركة العثمانية لخط حديد دمشق ـ حماه

وتفرّعاته»، المتفرّعة عن «الشركة العامة للخطوط الحديدية»، التي أسّست من أجل مدّ واستثمار خطوط الحديد في سوريا ولبنان (السباعي 1967، ص 52).

مارست هذه الشركة نهبًا منظّمًا من مال خزينة الدولة كل سنة «باسم تغطية عجز أثبتته (الضمانة الكيلومترية)، وفي نفس الوقت تكون رابحة ملايين الفرنكات، فقد ربحت هذه الشركة في السنة 1939 ستة ملايين ومائة وسبعة وسبعين ألفًا وثلاثة وستين فرنكًا» (حبّوش، لا تاريخ، ص 10).

في الوقت الذي أولت فيه سلطات الانتداب عناية خاصة بالخطوط الحديدية، اهتمت بالموانئ البحرية في بيروت وطرابلس والإسكندرونة، إلا أنّ الاهتمام الأبرز كان بمرفأ بيروت؛ فقد عمدت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وبعد وضع يدها على سوريا ولبنان، إلى دعم «شركة مرفأ بيروت» بقرض بلغت قيمته (1,276,600) فرنك فرنسي، لتأهيل المرفأ وإعداده للمرحلة القادمة التي شهدت نموًا على صعيد التبادل التجاري، برعاية الرأسمالية الفرنسية في المنطقة.

وبفضل هذا المرفأ، تحوّلت مدينة بيروت إلى مركز جذب هام للتجارة الداخلية والخارجية، نظرًا للخصوصيّات التي تميّز بها عن غيره من المرافئ الأخرى، منذ مطالع القرن العشرين. ومع تطبيق الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، بدأ يحقق تفوّقًا على بقية المرافئ السورية واللبنانية؛ ففي العام 1920 بلغت أرباحه (5,671,629) فرنكًا، واستمرّ الارتفاع في حجم الأرباح، حتى وصلت إلى (5,827,357) فرنكًا العام 1922، وأمّا على صعيد حركة البضائع فيه، فقد بلغت (159600) طناً في العام 1920، وارتفعت في العام 1922 إلى (241280) طنًا (De Monicault 1936, p 28-51). وما زاد في أهمية هذا المرفأ، أنّ معظم تجارة العراق وإيران وغيرها كانت تمرّ في بيروت تصديرًا واستيرادًا (السباعي 1967، ص 158).

يشير الدليل اللبناني- السوري، مجموعة العام 1923، إلى أنّ مرفأ بيروت استورد منفردًا، ما نسبته 87٪ من إجمالي وزن البضائع الواردة من أوروبا سنة 1921، و79٪ لعام 1922، بالمقارنة مع مرفأي طرابلس والإسكندرونة. وعلى صعيد الصادرات، استطاع أن يصدّر منفردًا إلى أوروبا، حوالي 65٪ من مجمل الصادرات، عبرالمرافئ

السورية واللبنانية للعام 1921، وحوالى 62٪ للعام 1922 (الدليل اللبناني السوري 1923، ص 52).

تقدّم تلك الأرقام مؤشّرات بالغة الدلالة على أهمية مرفأ بيروت، بالمقارنة مع بقية المرافئ الأخرى في سوريا ولبنان، وهذا ما أسهم في تعزيز المكانة المركزية لبيروت كمدينة إقليمية (مراد 1999، ص 151)، وكنقطة ارتكاز قوية لحركة التجارة الإقليمية والدولية. وبناءً عليه، فقد استأثرت في العام 1923 بحوالي 68٪ من إجمالي الواردات، و65٪ من إجمالي الصادرات للمدن الرئيسية في سوريا ولبنان. وفي العام 1933، وصل نصيب هذا المرفأ من الصادرات إلى 59,2٪ من إجمالي الصادرات لبقية مرافئ المدن (طرابلس، دمشق، حلب، الإسكندرونة، اللاذقية).

إنّ الدور البارز لمرفأ بيروت جعل من المدينة تحتل مكانة خاصة، مقارنة مع غيرها من بقية المدن السورية واللبنانية.

2 ـ 5 ـ استثمارات متنوّعة

يُضاف إلى الاستثمارات السابقة التي احتكرتها الرساميل الفرنسية في سوريا ولبنان، الاستثمار في مجال الجرّ والتنوير؛ فقد قامت في أهمّ المدن السورية شركات متعدّدة بعضها للجرّ، والبعض الآخر للتنوير والمياه. وأهمّ الشركات الفرنسية التي تولّت إدارة هذا القطاع شركة كهرباء بيروت، شركة كهرباء حلب، وشركة كهرباء حمص وحماه، إضافة إلى شركة الطاقة الكهربائية في سوريا، وشركة كهرباء ترام دمشق، وشركة كهرباء قاديشا (السباعي 1967، ص 89)، عدا عن الاستثمار في مجال شقّ الطرقات البريّة.

كذلك، تغلغل الرأسمال الفرنسي في ميادين أخرى من ميادين الحياة الاقتصادية؛ ففي اللاذقية قامت «شركة صناعة الإسفلت وزيوت اللاذقية»، من أجل استثمار ثروة الإسفلت عبر استخراجها وتصنيعها وبيعها، كما تمركزت في بيروت «شركة المشاريع العقارية» للمتاجرة بالعقارات، و«شركة الفنادق الشرقية الكبرى» التي كانت تمتلك فنادق كبيرة في سوريا ولبنان، إضافةً إلى «شركة راديو أوريان»، و«شركة معامل القطن السورية»، و«الشركة الصناعية لدول الشرق»، و«شركة تلفون سوريا» و«شركة

الشرق للطيران»، التي تولّت وصل فرنسا بسوريا جوًّا، عدا عن شركات التأمين والنقل والمؤسسات التجارية، والطواحين والإسمنت والمعاصر.

وفي خطوة عكست مدى اهتمام سلطات الانتداب الفرنسي بتغلغل رساميلها التجارية واحتكارها السوق السورية في وجه منافسيها التجاريين من الدول الأوروبية الأخرى، لجأت تلك السلطات إلى تنظيم «**معرض بيروت**» للمنتوجات الفرنسية بتاريخ 30 نيسان 1921، وجاءت فكرة تنظيم هذا المعرض، في إطار سعي الأوساط الدبلوماسية والاقتصادية الفرنسية، لتحويل سوريا إلى زبون دائم للبضائع الفرنسية، وإزاحة غيرها من الدول الأوروبية المنافسة لها اقتصاديًا في هذا البلد، وبالأخص بريطانيا. ولأهميّة الحدث، تم افتتاح المعرض بحضور «لوسيان ديور» وزير التجارة الفرنسية، ممثّلاً لـ «أرستيد بريان» رئيس الوزراء الفرنسي، وبحضور الجنرال «غورو»، إضافة إلى العديد من أعضاء غرف التجارة في بيروت وطرابلس ودمشق وحلب واللاذقية، وغيرها. (Haut-Commissariat La Syrie et le Liban en 1921:La Foire-Exposition de Beyrouth 1922, p26).

وعن إقامة هذا المعرض قال أمين عام المفوضية الفرنسية «روبير دوكيه»، في رسالته إلى الرئيس الفرنسي «ميللران» بتاريخ 25 آذار 1920، أي قبل انطلاق المعرض بسنة، أنّ المعرض سيكون «تظاهرة»، يمكن أن تخدم قضية فرنسا ومصالحها، وأمل «دوكيه» أن تحتفظ هذه «التظاهرة» بصفة فرنسية- سورية خالصة، عبر إزاحة وإضعاف أية مشاركة أجنبية غير فرنسية فيه، وهذا ما حصل فعلاً، الأمر الذي أدّى إلى انعكاسات سلبيةً، على مواقف بريطانيا والدول المنخفضة، حيث أعرب قناصلهم عن انزعاجهم من المكاسب، التي يمكن أن تجنيها التجارة الفرنسية في سوريا من إقامة المعرض (بارودي 1986، ص 39).

شارك في المعرض شركات فرنسية قامت بعرض منتوجاتها، وأهمّها ما يظهر في الجدول الآتي:

الجدول الرقم (2)

أهم الشركات الفرنسية المساهمة في عرض منتجاتها في معرض بيروت

(نيسان عام 1921)

اسم الشركة	إنتاجها
شركة آنوس (ANOS)	الخيوط والمنسوجات
شركة باك (Bac)	المصنوعات المعدنية الخفيفة
شركة برتران تاكيه (Bretrand-Taquet)	الأغذية والمجففات
شركة كاريير (Carrier)	المنتوجات الباريسية والعطور
شركة كاسار (Cassard)	الأثاث والمفروشات
شركة شانيه (Chanee)	التحف والمفروشات
شركة كولنج (Collenge)	الأدوات الهندسية والتصوير
شركة لوجون (Le Jeune)	الغذاء والمشروبات
شركة شنايدر (Shneider)	الآلات الزراعية
شركة ترونسان (Troncin)	العقاقير الطبية

كما يبدو من الجدول (Haut-Commissariat, La Syrie et le Liban en 1921: La Foire-Exposition de Beyrouth 1922 .P 26-27)، فإنّ المعروضات شملت مختلف أنواع المنتوجات الصناعية لأهم الشركات الفرنسية، وخلال مدّة افتتاح المعرض التي استمرت لشهر واحد، تمّ عقد صفقات تجارية ناهزت قيمتها 20 مليون فرنك فرنسي.

عمليًا، حقّق المعرض نتائج باهرة بالنسبة للاقتصاد الفرنسي، نظرًا لحجم الشركات الفرنسية التي شاركت فيه، على امتداد شهر.

في 9 أيار 1921، قدّم الجنرال غورو تقريرًا موجزًا عن نتائج المعرض إلى وزارة

الخارجية الفرنسية، جاء فيه: «إن معرض بيروت الذي اشترك فيه أكثر من (1200) شركة فرنسية، ومجموعة مهمة من البيوتات المحلية، مقابل مشاركة أجنبية ضعيفة جدّاً، ترك انطباعًا رائعًا لدى سكان سوريا، وأسفر عن خلق أمتن علاقات التعامل، بين التجار الفرنسيين والمحليين»، وعزا غورو هذا النجاح، إلى الجهود التي بُذلت لإنجاحه، مما فتح مستقبلاً غنيًا للتجارة في الشرق الفرنسية. (Syrie-Liban,1918-1940, Le 9 Mai 1921 (Ministère des Affaires Etrangères Françaises

3 - استنتاجات عامّة

إنّ الانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا جاء في الظاهر تطبيقًا لصيغة جديدة في العلاقات الدولية، تمّ الاتفاق عليها في مؤتمر فرساي، وكانت تهدف إلى إرشاد شعبي لبنان وسوريا، وتطوير الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذين البلدين، وفق الأطر التي رسمتها عصبة الأمم وأكّدها صكّ الانتداب، غير أنّه في الواقع، كان تجسيدًا لمشروع استعماري مغلّف بغطاء الانتداب، كمصطلح تبريري انتهجته السياسة الاستعمارية الفرنسية من أجل السيطرة، ومن أجل تحقيق مطامع الرأسمال الفرنسي، وتتويجًا لجهود الرأسمالية الحاكمة في باريس، التي كانت تعمل بوحي من إملاءات غرف التجارة والصناعة الهامّة في فرنسا، والتي كانت ترى ضرورة إلحاق المشرق العربي بمشاريعها الاستعمارية وبفلكها الرأسمالي، والتحكّم بموقعه الجيو-سياسي الهامّ، والسيطرة على ثرواته الطبيعية اللازمة لصناعاتها، وجعله سوقًا تجارية لتصريف إنتاجها الصناعي، الذي كان يزداد بوتائر متسارعة، حتّى أنه يصح الاستنتاج بأنّ السياسة الخارجية الفرنسية كانت في خدمة التوجهات العامّة لغرف التجارة والرساميل الفرنسية. وعليه، كان الأداء الانتدابي السياسي الفرنسي محكومًا في خطوطه العامة وعناوينه التفصيلية لتلك التوجّهات، التي كانت لا ترى في المشرق العربي إلا موردًا هامًا من موارد الغنى والرفاه للواقع الاجتماعي والاقتصادي في فرنسا، فالمسألة في نظرهم، ليست سوى عملية استنزاف ونهب لموارد المنطقة، دعمًا للاقتصاد الفرنسي.

وانسحب هذا التفكير التبريري والسلوك النفعي على سياسات بعض الدول

الكبرى في المنطقة العربية حتى يومنا هذا، وما زالت هذه العقلية هي المحرّك الأساسي الذي يطبع سياسة تلك الدول في تعاطيها مع ملفات المنطقة، والتي ترفع شعارات إنسانية وحقوقية زائفة، سواءً أكانت فرنسية أم أمريكية أم روسية وغيرها، ففرنسا اليوم، تقحم نفسها وترمي بثقلها في ملفات المنطقة، تحقيقًا لاستثمارات شركة Total النفطية، سواءً في الحوض الشرقي للبحر المتوسّط أو غيره، وفي هذا السياق يمكن أن نفهم خلفية توثّبها للتدخل في الملفّ اللبناني. بالموازاة، لا تنفكّ الإدارة الأميركية تفتعل الأزمات في المنطقة وليس آخرها الأزمة السورية، من أجل غاياتها القائمة على بسط يدها على مصادر الطاقة، وتأجيج الحروب من أجل تأمين تصريف ما تنتجه صناعاتها الحربية من عتاد متطوّر، وقد دخلت استراتيجتُها هذه بعد الحروب العربية الإسرائيلية طورًا جديدًا، لا سيّما بعد التغيّرات التي أصابت المنطقة، عقب سقوط الشاه في إيران عام 1979، وخسارتها لركن مهم من أركان توطيد نفوذها في المنطقة، ما حدا بها لتقوم بافتعال الحرب بين العراق وإيران في ثمانينيات القرن العشرين، وما تلا ذلك من تحريضها العراق لغزو الكويت، فكان ذلك فرصة ذهبية لها، وذريعة للتدخل المباشر عبر أساطيلها ومدمّراتها، مرورًا بغزو أفغانستان والعراق، وصولاً إلى احتلال أجزاء من شمال شرق سوريا، حيث تعمل على سرقة موارد تلك المنطقة من نفط وحبوب.

مكتبة البحث

أولاً: الوثائق باللغة العربية

- الدليل اللبناني- السوري (مجموعات إحصائية سنوية عن سوريا ولبنان) 1923.

ثانيًا: الوثائق باللغات الأجنبية

- **وثائق الأرشيف الفرنسي: (M.A.E.F):**

- Ministère des Affaires Etrangères Françaises (M.A.E.F):
- M.A.E.F: Guerre 1914-1918, Turquie (Syrie- Palestine), V.869.
- M.A.E.F: E- Levant, Syrie - Liban, 1918-1929 : V. 3- 225.
- M.A.E.F:E- Levant, Syrie - Liban, 1918-1940. V. 65-72.

ثالثًا: المصادر باللغة العربية

- الأرمنازي، نجيب، **سورية من الاحتلال حتى الجلاء**، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الثانية،1973.
- حبوش، إميل، **أساليب السياسة الفرنسية**، دار الأحد، بيروت، (لا تاريخ للنشر).
- حنّا، جورج، **من الاحتلال إلى الاستقلال**، بيروت، 1946.
- علي، محمد، **خطط الشام**، الجزء الرابع، دمشق، 1922-1928.

رابعًا: المصادر باللغات الأجنبية

- De Monicault, Jaques, Le Développement du port de Beyrout et l¢Economie des pays du Levant sous Mandat Français. Paris, 1936.
- Haut-Commissariat, La Syrie et le Liban en 1921: La Foire-Exposition de Beyrouth, Avril-Mai 1921.Larose, Paris,1922.

خامسًا: المراجع باللغة العربية

- بزّي، مصطفى، **التكامل الاقتصادي بين جبل عامل ومحيطه العربي 1850-1950**، دار المواسم، بيروت، الطبعة الأولى، 2002.
- جحا، شفيق، **معركة مصير لبنان في عهد الانتداب الفرنسي 198-1946**، الجزء الأول، مكتبة رأس بيروت، الطبعة الأولى، 1995.
- حنّا، عبد اللّه، **القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان 1920-1945**، القسم الثاني، دار الفارابي، بيروت، 1978.
- خوري، فيليب، **سوريا والانتداب الفرنسي، سياسة القومية العربية 1920-1945**، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1997.
- السباعي، بدر الدين، **أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية (1850-1958)**، دار الجماهير، دمشق، 1967.
- السمّان، أحمد، **محاضرات في اقتصاديات سوريا**، جامعة الدول العربية، القاهرة، 1955.
- شعيب، علي، **مطالب جبل عامل الوحدة والمساواة في لبنان الكبير 1900-1936**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1987.
- ضاهر، مسعود، **تاريخ لبنان الاجتماعي 1914-1926**، دار المطبوعات الشرقية، الطبعة الثانية، 1984.
- فتّال هند، وسكرية رفيق، **تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر**، مطابع جروس برس، بيروت، الطبعة الأولى، 1988.
- كوثراني، وجيه، **الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي من المتصرفية العثمانية إلى دولة لبنان الكبير**، منشورات بحسون الثقافية، بيروت، 1986.
- لوتسكي، فلاديمير، **الحرب الوطنية التحرّرية في سوريا 1925-1927**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1987.

- مراد، محمد، **العلاقات اللبنانية- السورية**، (دراسة اقتصادية-اجتماعية-سياسية)، دار الرشيد للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى 1993.

سادسًا: الأطروحات الجامعية

- بارودي، نجوى، **السياسة الفرنسية وأثرها في التناقضات السياسية والطائفية في لبنان 1926-1943**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الإسكندرية، 1986.
- زين الدين، عيدا، **التطور الاجتماعي والاقتصادي لمدينتي بيروت ودمشق في عهد الانتداب الفرنسي 1920-1943**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، الجامعة اللبنانية، المعهد العالي للدكتوراه، بيروت، 2009.

سابعًا: المقالات العلميّة

- مراد، محمد، «**المبادلات التجارية لسوريا ولبنان مع أوروبا في عهد الانتداب الفرنسي 1920-1943**»، أوروبا والشرق الأدنى 1920-1973، الجزء الأول، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية (45)، بيروت، 1999.

ثامنًا: الدّوريّات باللغة العربية

- القبس (-1932 1934)

تاسعًا: الدوريات باللغة الأجنبية

- L’Asie Française, 1921- 1925.

التقارب بين المعرفة والتكنولوجيا في العلوم الاجتماعية عبر النظرية المجذرة

د. علي خليل زريق

ملخص البحث

تسعى العلوم الاجتماعية إلى فهم البشر ومجتمعاتهم، والتي ستشكل ما يسمى بالمعرفة، مع مراعاة التحولات في التشكيلات الاجتماعية وظهور ما يسمى بالمجتمعات الرقمية والافتراضية بسبب التطور المتسارع للتكنولوجيا؛ كيف يمكن للعلوم الاجتماعية معالجة قضايا المجتمع الرقمي والبحوث الأنثروبولوجية الرقمية؟ هل أساليب البحث الاجتماعي المألوفة مناسبة لبيئة الشكل الاجتماعي المتغيرة، وما هي النظريات التي تدعم تكنولوجيا المعلومات والتواصل كأداة للبحث العلمي والفضاء الرقمي كمجال اجتماعي؟

يقدّم البحث إطاراً نظرياً عن النظرية المجذرة (Grounded Theory) كأحد الحلول المبتكرة في منهجية البحث العلمي كونها تدعم البحث النوعي في البيئة الرقمية وتركز على التفاعلات الاجتماعية، كما يقدّم البحث عرضاً عن النظرية المجذرة وإجراءاتها، ومراحل تطبيقها الاستقرائية، وتكييف القواعد المنهجية المألوفة في البحث السوسيولوجي الرقمي.

(*) دكتوراه في الترجمة وعلوم اللغة والتواصل في الجامعة اللبنانية وباحث في الانسانيات الرقمية وتكنولوجيا التعليم .

الكلمات المفتاحية

العلوم الاجتماعية، تكنولوجيا المعلومات والتواصل، البحث السوسيولوجي الرقمي، النظرية المجذرة

1 - مقدمة

مع ظهور الحقيقة المعرفية، وولادة واقع آخر قائم على الخيال المعرفي العلمي بعيدًا عن الخيال الميتافيزيقي؛ هذا هو الواقع التجريبي الناتج عن الترابط بين الثورة العلمية والتكنولوجية الحالية وثورة المعرفة التعليمية. كان يعتقد أن الإنسان العاقل لعب الدور الأبرز في اكتساب المعرفة واستخدامها لمقاومة اضمحلال «الإنتروبيا» وعبء التطور. من خلال اعتماد تكنولوجيا المعلومات والتواصل وتوسيعها لتشمل كل جانب من جوانب الحياة البشرية، أصبح لدينا صراع خفي لامتلاك قوة المعلومات؛ بواسطتها يكون الإنسان قادرًا على فهم نفسه ومجتمعه والعالم من حوله، وسيشكل هذا الفهم فيما بعد ما يسمى بالمعرفة.

مرّ وقت طويل ليكتشف الكائن البشري صوراً من التكنولوجيا تتضاعف باطراد معدل نمو المعرفة وبواقعية المجتمع الواقعي وارتباط الفرد بالتكنولوجيا، أصبح التعليم أفضل والدولة الغنية أكثر غنى، وتوسع مجال العلوم الاجتماعية للعمل على قاعدة الإنتاج المعرفي وهي من مرحلة القياس والاستنتاج إلى مرحلة خلق النظريات والتنبؤ بالفعل الاجتماعي، ومع تشكل الواقع التنظيمي الجديد المبني على أساس الاستخدام الواسع لوسائل الاتصال الإلكترونية، يطرح الباحث السوسيولوجي نديم منصوري سؤال الآتي « هل يعكس الإنترنت صورة المجتمع، أي هل يمكن أن يكون مجتمع الإنترنت مرآة المجتمع الواقعي؟» (منصوري، علم إجتماع الإنترنت وضرورته، 2018)، رغم بساطة المعنى للإشكالية السوسيولوجية إذ إنها بعمق معرفي تجعل الباحثين أمام واقع جديد وعلم جديد وتساؤلات جديدة « كيف للعلوم الاجتماعية معالجة إشكاليات المجتمع الرقمي ودراسة الانتروبولوجيا الرقمية، هل تصلح مناهج البحث السوسيولوجي أو القواعد المنهجية المألوفة مع التحولات التي عرفتها المورفولوجيا الاجتماعية وتشكل المجتمعات الرقمية والافتراضية »؛ بالطبع

«نعم» ولكن تبقى العلوم الاجتماعية ضمن محور الاستنباط بعيداً عن الاستقراء. لعلّ أول من استدرك طبيعة تشكل المجتمعات الرقمية وعلم جديد التكنو-اجتماعي هو الباحث في اللسانيات الرقمية الدكتور غسان مراد، من خلال محتوى الأبحاث المنشورة والجهود الشخصية لإدخال المعلوماتية التطبيقية على العلوم الإنسانية، أوضح التداخل الكبير بين اختصاصات العلوم الإنسانية والمعلوماتية، كما رأى أن دور الإنسانيات الرقمية ليست مسألة أدوات تقنية بل إشكالية تتعلق بالتجديد في العلوم حيث يجب طرح منهجية جديدة للبحث العلمي تتوافق مع الرقمنة « فالمعرفة والمفاهيم والنظريات الخاصة بعلم معين ستشكل أساس المجال العلمي الرقمي الجديد وهذا ما يتطلب منهجية جديدة تتوافق مع الرقمنة» (مراد، 2012).

نحن على مشارف «الثّورة الصناعيَّة الرابعة» التي بدأت بوادرها بالظهور مع ما تطرحه ثورة المعلومات والاتصالات من إمكانات لتطوير المجتمع، حيث تعيش المجتمعات تحوّلاً جذريًّا من تطوّرات غير مسبوقة، ما أدّى إلى تقارب المجتمعات مع بعضها، وإحداث تغيير في الروابط الاجتماعية والقيم والعادات، ظهرت معه ممارسات وأشكالا اجتماعيّة جديدة، لقد تغير الواقع، وأصبح لهذا المجتمع اقتصاد جديد هو الاقتصاد الرقمي، وسياسة جديدة هي السياسة الرقمية، وثقافة أخرى وعلاقات متشابكة مختلفة تمامًا عن العالم الحقيقي. حتى الذكاء الاصطناعي أصبح تهديدًا مباشرًا للإنسانية بإنسانيتها.

ويُعتبر البحث العلمي السوسيولوجي من أهم الأنشطة الفكرية لأنّه يتناول جميع جوانب حياة الإنسان والمجتمع وعلاقة الإنسان في مجتمعه وتأثير مجتمعه في سلوكه، فالإنسان أعقد من الآلة يحكمه القانون، ويبرز دور البحث الاجتماعي في الوصول إلى هذا القانون من خلال بناء النظريّات الاجتماعية والمفاهيم الاجتماعية والبحث العلمي.

إنّ إشكاليّة البحث السوسيولوجي في معهد العلوم الاجتماعية هي التجديد في منهجيّة البحث وميادين البحث في التطوّر الدائم لتكنولوجيا المعلومات والتواصل، فالتكنولوجيا غيّرت من بيئة الأشكال الاجتماعية، فالمجتمع الذي طُبِّقت عليه النظريّات الاجتماعية أصبح مجتمعاً رقمياً أثَّر وتأثَّر بالتكنولوجيا بشكلٍ عام،

و«حجم الحركات التفاعلية التي ينتجها الإنترنت كما رأينا، دفعت بعلمَي الاجتماع والأنتروبولوجيا الى الاهتمام بأثر العلم والتكنولوجيا المعلوماتية في تكوين شخصية الانسان المعاصر، كفرد وكمجتمع، في المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي المتداخلين والمتفاعلين بصور متعددة» (منصوري، سوسيولوجيا الإنترنت، 2014، صفحة 206)، ومع ظهور شبكات التواصل الاجتماعي تشكّل حقلاً بحثياً في الميدان الافتراضي، ومع استعمال مفهوم البيانات الضخمة (Big Data) أصبح التوجّه قائمًا على «رقمنة مناهج البحث السوسيولوجي».

2 - نظرية البحث السوسيولوجي

إنّ العلوم الاجتماعية تعاني مشكلاتٍ كثيرة في تطوّرها، منها البقاء في المجال الوصفي وقلّة التنظير وبناء النظريّات التي تلائم مجتمعنا المحلّي كما أصبحت البحوث في العلوم الاجتماعية تُقاس بمدى امتلاك أدوات نظريّة قادرة على التفسير والتنبّؤ، لذلك لا يمكن للعلوم الاجتماعية أن تبقى اجترارًا لمعلومات ومقرّرات من القرن الماضي بمنهاجها السوسيولوجي وميادينها البحثيّة، وغير قادرة على اللحاق بعالم اليوم المتطوّر.

المجتمع هو مهمّة علم الاجتماع الرئيسة ومجال دراساته، لم يعد المجتمع الواقعي التقليدي، إنّما بدأ ينافسه في تزايد المجتمع الافتراضي، حتى مع ظهور الذكاء الاصطناعي «سيُفقد الإنسان إنسانيّته في ظلّ وقوعه تحت عبودية التقنيّات التي تسيطر عليها مجموعة «غافام» (غوغل وأبل وفيسبوك وأمازون ومايكروسوفت) التي تمارس ما يمكن نعته بالإمبريالية الرقميّة؟» (مراد، 2023).

هذا المجتمع الجديد بمكوّناته الجديدة بحاجة إلى نظريّة تخدم «السوسيولوجيا الرقميّة» ومنهجيّة في التحليل الكيفي وتُعنى بدراسة قضايا المجتمع الرقمي، وإبراز خصوصيّة الفكر السوسيولوجي منها السعي لبناء النظريّة من خلال عرض الحقائق بطريقةٍ سرديّة باستخدام قوّة التحليل للكلمات والصّور والإشكال بعيدًا إلى حدٍ كبير عن الأرقام والإحصائيّات.

من هنا تأتي الحاجة إلى البحث عن طرق استقرائيّة تعمل على تأسيس علوم

اجتماعيّة قادرة على المساهمة في تطوير المعارف النظريّة والمنهجيّة. إنطلاقًا ممّا تقدّم يطرح الباحث مقترحاً لتكييف مناهج البحث أي القواعد المنهجيّة المألوفة مع التحوّلات التي عرفتها المورفولوجيا الاجتماعية إلى التكامل بين مناهج البحث الاجتماعي المألوف من جهة، والمناهج الافتراضيّة والرقمنة من جهةٍ ثانية. وتكون تكييف مناهج البحث السوسيولوجي من خلال (النظريّة المجذّرة Grounded Theory) لتوليد النظريّات السوسيولوجيّة ودعم البحث النوعي، نعني في التجديد أي ممارسة استعمالات الإنترنت على نحو يجعل مقتضيات العمل تتوافق مع مقتضيات المجتمع الافتراضي، وهذا لا يعني اختراع قواعد منهجيّة جديدة، إنّما تقتضي استخدام نظريّة في البحث الميداني تدعم التكنولوجيا كأداة والفضاء الرقمي للدراسة وتطبّق في مجالات بحثيّة متنوّعة.

3 - النظرية المجذرة (Grounded Theory)

في ظلّ ركود العلوم الاجتماعية والتبعيّة للنظريّات الغربيّة وغياب التنظير، تأتي الحاجة إلى النظريّة المجذرة للوصول إلى نظريّة بطريقة استقرائيّة قد أثبتت كفاءة كبيرة من خلال تطبيقها في مجالات بحثيّة متنوّعة وفي مجتمعات مختلفة، كما أنّها تطوّرت إلى حدٍ كبير عمّا كانت عليه في بدايتها، ما جعل منها اليوم المنهجيّة الأبرز في البحوث الميدانيّة التي تهدف إلى إنشاء نظريّة، وليس الاكتفاء بالوصف أو تكوين فرضيّات، النظريّة الناتجة هي نظريّة تمّ التحقّق منها وبناؤها في الوقت نفسه من خلال طرق وإجراءات صارمة (Charmaz K. , 2014). هناك أشكال كثيرة لطريقة البحث السوسيولوجي عبر النظريّة المجذرة، فالنظريّات والأدبيّات ليست الخطوة الأولى في البحث، فالنظريّة المجذرة تعالج البحث الميداني من خلال البيانات الميدانيّة.

تكمن أهميّة النظريّة المجذرة بأنها تلفت الانتباه حول مناهج البحث الاجتماعي في صيغتها الرقميّة، واستشراف مستقبل السوسيولوجيا في حقبة أضحت مناهجها ومعارفها تسير نحو الخوصصة، تعتبر النظريّة المجذرة التجديد في منهجيّة البحث، اجتهاد في تطوير أطر النظريّة السوسيولوجيّة وقواعد ميتودولوجيّة وديونتولوجيّة للاستفادة من التقنيّات الرقميّة بما يخدم مصلحة البحث العلمي.

تتميَّز النظريّة المجذّرة بأنها تركّز على الأفعال والمراحل والتفاعلات الاجتماعية في الحياة اليوميّة، فهي قد نشأت متأثّرة إلى حدٍّ كبير بالتفاعليّة الرمزيّة (Symbolic Interactionism) التي تقوم على افتراضات تعتبر أنّه لا يمكن بناء معرفة سوسيولوجيّة من دون فهم المعاني التي يعطيها الفاعلون الاجتماعيّون لأفعالهم وللعالم من حولهم، والتي يكوّنونها من خلال التفاعل مع غيرهم من الأفراد ومع المجتمع، وكذلك لا بدّ من فهم تأويلاتهم لهذه المعاني، فهي تخضع باستمرار للتعديل وإعادة التفسير (Blumer, 1986, p. 2).

الجدول الرقم (1)

الفرق بين النظريّة المجذرة والطرق التقليديّة

الطرق التقليديّة	النظريّة المجذرة
- قراءة الأدبيّات	- جمع البيانات
- تشكيل فرضيّات	- التحليل
- جمع البيانات	- تطوير نظريّات/ فرضيّات
- اختبار الفرضيّات	- قراءة الأدبيّات لتفسير النتائج

إنّ القيمة الأساسيّة للنظريّة المجذرة لا تكمن في كونها مجرّد دعوة مفتوحة للطلاب الباحثين في حقل السوسيولوجيا والباحثين عمومًا إلى توليد النظريّات، بل هي دعوة مصحوبة بمنهج تعليمي واضح ومحدّد، إذ توضع المسلك المنهجي الذي يمكن أن يسلكه هؤلاء في أبحاثهم الميدانيّة، إذا ما أرادوا لها أن تتجاوز مستوى الوصف، «وترتقي إلى مستوى بناء المفاهيم النظريّة المجرّدة التي لها صلاحيّة التعميم على الواقع الاجتماعي، ولها القدرة على التنبّؤ والتفسير» (قاوقو، 2019، صفحة 100).

تعني كلمة «مجذرة» باللغة العربيّة أي «جَذَّر» الشيء أي فصّله تفصيلاً، هي منهجيّة منتظمة في العلوم الإنسانيّة تشمل بناء النّظريّات من خلال جمع وتحليل منهجي للبيانات (Strauss & Corbin, 1994, pp. 273-284) ، و«تبدأ الدراسة التي تستخدم النظريّة المجذرة بسؤال، أو حتى بمجرّد جمع البيانات النوعيّة ﴿...﴾ تظهر الأفكار

أو المفاهيم أو العناصر المتكرّرة، ويوضع عليها علامات بواسطة رموز استخرجت من البيانات. ومع جمع المزيد من البيانات وإعادة مراجعتها، يُمكن تجميع الرموز في مفاهيم، ثمّ في فئات وقد تصبح هذه الفئات أساس النظريّة الجديدة، وبالتالي فإنّ النظريّة المجذرة مختلفة تمامًا عن النموذج التقليدي للبحوث، إذ يختار الباحث إطارًا نظريًا قائمًا، ثمّ يجمع البيانات فقط لكي يظهر كيف تنطبق النظريّة على الظاهرة قيد الدراسة اولا تنطبق عليها» (Allan, 2003, pp. 1-10)

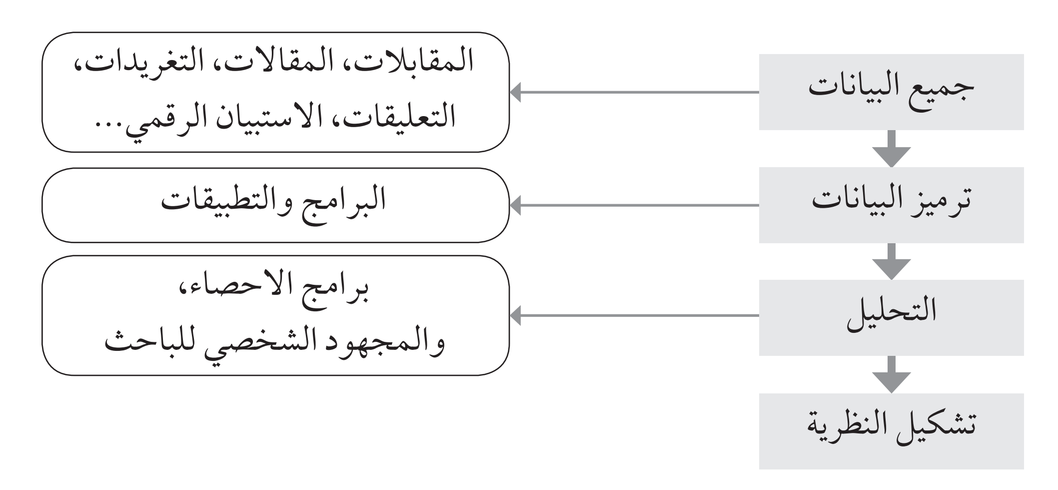
النظريّة المجذرة إحدى منهجيّات البحث لتوليد النظريّات السوسيولوجيّة وليس لإثبات الفرضيّات تهدف لإكتشاف النظريّة التي قد تكون تفسيرًا لظاهرة أو اقتراح لإطار عمل أو تطبيق لحلّ مشكلة معيّنة

مرحلة جمع البيانات وترميزها

تعتمد النظريّة المجذرة على استنباط مجموعة من الفئات والتصنيفات التي ترتبط فيما بينها بعلاقة لتشكّل إطار متكامل لتفسير ظاهرة ما أو التنبّؤ بها. ويتمّ التوصّل لهذا الإطار عبر جمع البيانات النوعيّة والتعامل معها بطريقةٍ منظّمة واستنباط المفاهيم الموجودة في تلك البيانات النوعيّة.

الجدول الرقم (2)

مصادر تطبيق النظرية المجذرة ومراحلها



في هذه المرحلة يقوم الباحث بجمع البيانات المتعلّقة بالظاهرة التي يعمل على دراستها من خلال استخدام المقابلات والمشاهدات العينيّة ودراسة المستندات والوثائق كأدوات للبحث. يقوم الباحث خلال المقابلة بتدوين الملاحظات أو تسجيل المقابلة، للتسجيل فوائده الجمّة، إن كانت الظروف تسمح بذلك، فهو يمكّن الباحث من التركيز على ما يقوله المشارك والتفاعل معه بطريقةٍ أفضل ممّا لو كان منشغلاً بكتابة الملاحظات

بعد الانتهاء من المقابلة، يجب أن يعود الباحث إلى مكتبه ويدوّن مذكرة أوليّة عاملة عن المقابلة، حيث يذكر كل الأفكار والأسئلة والانطباعات التي أثارتها. إنّ كتابة المذكّرات تعتبر مهمّة أساسيّة في النظريّة المجذّرة، وهذا يعني كتابة كل الأفكار والأسئلة والمقترحات التي تنشأ أثناء جمع البيانات وتحليلها. وهي تعتبر أمرًا لا بدّ منه، كونها تشجّع الباحث على تحليل البيانات والرموز في وقتٍ مبكر وتوجّهه أثناء عمليّة البحث، فهي نوع من المحادثة مع الذات تساعد على بناء الملاحظات التحليليّة (Patton, 2002, p. 72).

1.1.3 مرحلة الترميز

بعد الانتهاء من تفريغ المقابلة، يبدأ الباحث مباشرةً بعمليّة ترميز البيانات، وهي تتألّف من ثلاثة أنواع مختلفة: (Charmaz K. , The power and potential of grounded theory, 2012, p. 6).

الترميز الأولي: تسمّى (Charmaz) هذا النوع «الأولي»، بينما يفضل (Glaser & Strauss) تعبير مفتوح، وهو يمثّل الخطوة الأولى في عمليّة الترميز. ومن المهم أن يثير الباحث التساؤلات، ماذا تعني هذه البيانات وماذا تقترح؟ ومن وجهة نظر مَن؟ وما الفئة النظريّة التي تشير إليها هذه البيانات المحدّدة؟ على الباحث في مرحلة الترميز الأولية ألاّ يعطي مسبقًا أيّة أهميّة تحليليّة لمتغيّرات الجندر أو الطبقة الاجتماعية أو غيرها.

الترميز المركز: وهي الخطوة الثانية بعد الترميز الأولي، حيث يقوم الباحث باختيار أبرز الرموز والأهم بالنسبة إلى البحث

الترميز النظري: تمكّن عمليّة الترميز النظري الباحث من الصعود التدريجي إلى مستوى أعلى من التجريد، حتى الوصول إلى رسم معالم النظريّة، هناك نوعان من الترميز النظري، الواقعيّة والنظريّة، تشكّل الأولى مفاهيم من المادة الأولى الميدانيّة لمجال البحث، أمّا الثانية تتشكّل مفاهيم عن كيفيّة ارتباط الرموز الواقعيّة بعضها ببعض.

2.1.3 مرحلة التحليل

يقوم الباحث بتحليل الملاحظات التي تمّ جمعها بغرض استنباط الرموز والكلمات المفتاحيّة، كما يتمّ مقارنة الملاحظات مع بعضها بغرض استخراج الأنماط. هناك طريقتان أساسيّتان لا بدّ للباحث أن يلتزم بهما عند اعتماد النظريّة المجذرة أيًا كانت المدرسة التي كان قد اختارها: طريقة العيّنة النظريّة وطريقة المقارنة المستمرّة. لا تتح هاتين الطريقتين للباحث بناء مفاهيمه التحليليّة انطلاقًا من البيانات فحسب، وإنّما تُمكّنانه أيضًا من صقل هذه المفاهيم من خلال مقارنتها بالبيانات والأدبيّات السابقة، فضلاً عن تمكّنه من اكتشاف كيفيّة مساهمة المفاهيم التي أنشأها في تقديم إضافات نوعيّة جديدة في النظريّات السابقة (محمود، 2018، صفحة 100).

طريقة العيّنة النظريّة: الهدف من العيّنة النظريّة هو الحصول على بيانات مفيدة تفسّر الفئات، وليس البحث عن «التمثيل» أو زيادة القابليّة للتعميم الإحصائي، تجمع هذه الطريقة بين الاستقراء والاستنباط، فهي عمليّة جمع البيانات لتوليد النظريّة، حيث يقوم المحلّل بجمع وترميز وتحليل بياناته، ويقرّر ما هي البيانات التي سيتمّ جمعها بعد ذلك وأين يمكن العثور عليها، من أجل تطوير نظريّته حال نشأتها (Glaser & Strauss, 2017, p. 45). تتيح هذه الطريقة سحب العينة للباحث والعثور على البيانات بطريقة تسمح له بإنشاء فئات جديدة. ينتهي جمع البيانات عند الوصول إلى ما يُعرف بالتتبع النظري، ما يعني أنّ البيانات التي تمّ جمعها أضحت متكرّرة

طريقة المقارنة: يحدّد (Glaser) التحليل المقارن المستمرّ على النحو الآتي: (Glaser, 1965, p. 439)

- مقارنة الحالات القابلة للتطبيق على كلّ فئة ممّا يساعد على ظهور الفئات

والخصائص المرتبطة بها.

- دمج الفئات وخصائصها، ممّا يؤدّي إلى ظهور النظريّة، لذلك لا بدّ من جمع البيانات وتحليلها في الوقت ذاته باتباع طريقة العينة النظريّة.
- ترسيم النظرية: الأمر الذي سيتيح اكتشاف الأنساق في الفئات وفي خصائصها أيضًا.
- والخطوة الأخيرة هي كتابة النظريّة.

وهكذا سيتمكّن الباحث بواسطة الاستقراء والمقارنة المستمرة من توليد مفاهيم ونظريّات أكثر تجريدًا، وسيعود ليفحص بياناته من خلالها. وهذا يعني أنّه لا ينتظر إلى حين الانتهاء من جمع البيانات كي يحلّلها كما هو مألوف في استراتيجيّات نوعيّة أخرى في النظريّة المجذرة، يجمع الباحث البيانات ويحلّلها في وقتٍ واحد، كما أنّ هذه المقارنات لا تقتصر على البيانات التي تمّ تحليلها، كما يمكن للأدبيّات والنظريّات الموجودة أن تكون مصادر غنيّة للمقارنة (Charmaz K. , 2008, p. 165) .

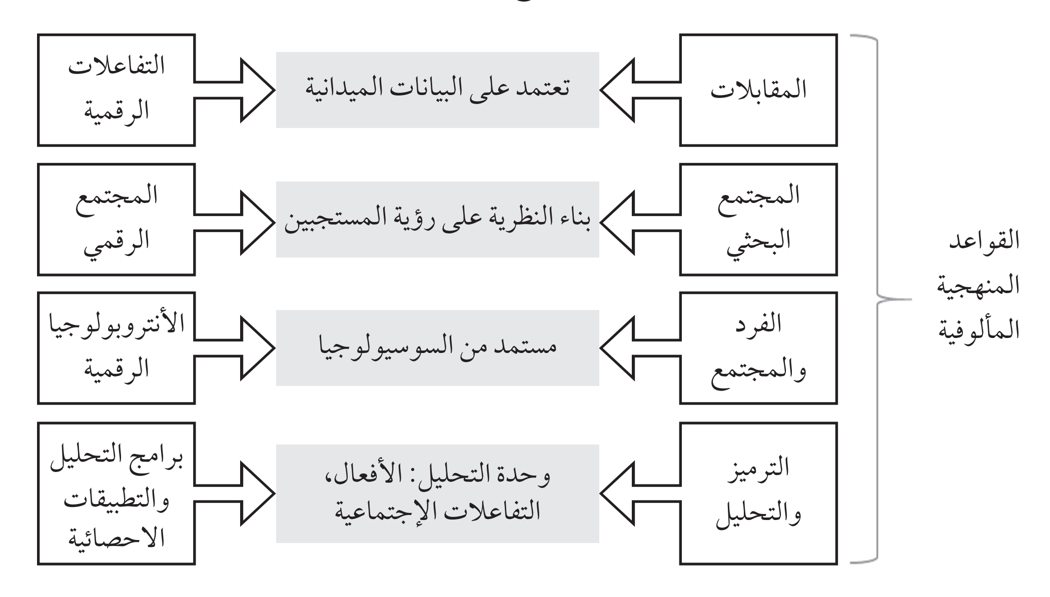
4. البحث السوسيولوجي الرقمي

تحدّد معالم البحث السوسيولوجي الرقمي مع بداية العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، إذ شهدت هذه المدة ارتفاعًا في وتيرة استعمال التقنيّات العالية التكنولوجيا في مجالات عدّة، وظهور مفهوم «البيانات الضخمة Big Data » من أجل معالجة البيانات كميًّا بواسطة الحاسب الآلي، بهدف الكشف عن بعض النماذج أو الاتجاهات، ارتباطًا بالسلوك الإنساني. توسّع مجال البحث السوسيولوجي بمناهجه لاستيعاب المجتمع المتوسّع بصيغته الفعليّة والافتراضيّة، وتطوّرت ميادينه لتشمل مختلف المجتمعات في الفضاء الرقمي، وفتح الآفاق لدراسة الإنسان في عالم الحاسوب ودراسة الحاسوب في عالم الإنسان. ومع نشوء «علم الاجتماع الآلي» كمجال معرفي اجتماعي تكنولوجي لا بدّ للبحث السوسيولوجي التوجّه لدراسة المنظومة «التكنو-اجتماعية» بمختلف فروعه، فقد بات الإنسان على بعد خطوة من «إنسان جديد» وهو جزء لا يتجزأ منه أي هذا الكائن الآلي الذي يتراءى لنا على شاشة

الحاسب الآلي، هي كينونة جديدة لإنسان جديد بملامح وتقاسيم إلكترونيّة، وذات رقميّة افتراضيّة جديدة، يحمل خصائص التكنولوجيا في عقله وجسمه وسلوكه.

الجدول الرقم (3)

تكييف القواعد المنهجية مع منهجية النظرية المجذرة



مع تطبيق القواعد البحثية المألوفة واللقاء المباشر دون وسيط عند المقابلة أصبح بإمكان الباحث اعتماد التفاعلات الرقمية كبيانات ميدانية وبما أن المجتمع البحثي الذين يشكلون موضوع البحث أصبح المجتمع الرقمي هو المجتمع الأصلي مع الخصائص الخاصة التي يتشكل منها؛ الذي يعيش ويتفاعل أفراده مع بعضهم البعض في الواقع الافتراضي، وفي هذا المجتمع هناك اقتصاد جديد هو الاقتصاد الرقمي، وهناك سياسة جديدة هي السياسة الرقمية، وحروب من نوع آخر أشد وأقسى هي الحروب الرقمية، هو المجتمع أوسع من المجتمع الواقعي متحرراً من قيد الزمان والمكان.

انطلقت الأبحاث في هذا الصدد مع بداية العقد الحالي، حيث اتجهت بعض الدراسات في هذه المدة إلى اعتبار عناصر البيئة الرقميّة أداة تحليليّة، وذلك عبر اعتماد مفهوم «البَيْنَصِّيَّة» في البعد الرقمي، من زاوية الروابط الإلكترونيّة التي تصل

بين النصوص المتشعّبة (Hypertexts) (Mitra & Cohen, 1999, p. 182)، بينما اتجه باحثون آخرون على تكييف مناهج البحث المعتادة مع طبيعة الفضاء الرقمي في إطار مقاربة تكامليّة بين المنهجين الكمّي والكيفي (Sudweeks & Simoff, 1999)، اعتمد مفهوم «الإثنوغرافيا الافتراضيّة» في الأبحاث السوسيولوجي مع بداية التسعينيّات لكن دون توظيف مفهوم نظري فقد كانت أغلب الدراسات التي أنجزت في تلك المدة داخل الفضاء الرقمي، قائمة على منهج الملاحظة الإثنوغرافيّة للجماعات الافتراضيّة على اختلافها وركّزت هذه الأبحاث على دراسة كيفيّة استخدام الأفراد الفضاءات الإلكترونيّة ولم تولِ اهتماماً لمسألة توصيف المنهج الرقمي حتى عام 2000 مع أعمال (Christine Hine) من خلال اعتمادها مفهوم الاثنوغرافيا الافتراضيّة كمنهج في البحث يقوم على الانخراط داخل المجتمع الافتراضي، وملاحظة التفاعلات والأنشطة الإلكترونيّة التي تتمّ داخله، واستحضار الإيقاعات المختلفة التي تسير بها الجماعات الافتراضيّة (Hine, 2000, pp. 66-71).

يرى علماء الاجتماع أنّ المجتمع يتغيّر بسبب استخدام تكنولوجيّات المعلومات والتواصل، وأول من طرح نشأة نظام اجتماعي مختلف وجديد العالم الأميركي (Daniel Peel) في كتابه «المجتمع ما بعد الصناعي 1974» ويرى أنّ نظامًا اجتماعيًّا ينشأ استجابة للتحوّلات الحديثة في الاقتصاد والتكنولوجيا (عبد الهادي، 2007، الصفحات 50-51)، وأجمع الباحثون على أنّ انتشار الإنترنت من أهم التطوّرات التي شهدتها اَلتِّكْنُولُوجْيَات في القرن الماضي، والإنترنت النموذج المؤثّر الفعّال لثورة المعلومات ونافذة الإنسان التي يرى من خلالها واقعه، ويمارس فيها عن بعد معظم أنشطته العمليّة والذهنيّة وقد وفّرت تكنولوجيا المعلومات والتواصل مساحة مثيرة للقاء الثقافات، إنّ الفكرة وراء النجاح المذهل الذي حقّقه الإنترنت تكمن في أنّ التكنولوجيا لا تحقّق أهدافها إلاّ إذا تفاعلت مع المجتمع. فالإنترنت بهذه القدرات هي المسؤولة عن وجود العالم الافتراضي والتكنولوجيا وهي المسؤولة عن وجود مجتمع المعلومات، ويرى الدكتور منصوري « ان هذه المجتمعات هي متغيرة شأنها شأن أي مجتمع طبيعي، أي تنمو وتتطور وتتغير» (منصوري، سوسيولوجيا الإنترنت، 2014، صفحة 86).

5. الخاتمة

بدأت الدراسة بالتعرف على المجتمع الواقعي وارتباطه بالتكنولوجيا، والتعرف على الإشكالية في العلوم الاجتماعية مع الواقع الجديد للمجتمعات وتحولها إلى مجتمعات رقمية وافتراضية؛ وهي التجديد في منهجية البحث السوسيولوجي التي تعنى بدراسة قضايا المجتمع الرقمي. انتقلت الدراسة إلى طرح مقترح لتكييف مناهج البحث مع القواعد المنهجية المألوفة من خلال النظرية المجذرة بصفتها منهجية قادرة على المساهمة في توليد النظريات الاجتماعية من خلال استقراء البيانات والمعلومات يكون مركزها التفاعلات الرقمية، كما تطرقت الدراسة إلى نشأة النظرية المجذرة ومراحل تطبيقها في البحث السوسيولوجي الرقمي

فلا بد من توظيف تكنولوجيا المعلومات والتواصل في البحث ومعالجة المعلومات والاستفادة من إيجابياتها في تطوير منهجية البحث السوسيولوجي لتتلاءم وطبيعة أهداف العلوم الاجتماعية البحثية

6. المراجع

المراجع باللغة العربية

باسم محمود. (2018). نحو علوم اجتماعيّة في السياق العربي: في الحاجة إلى النظريّة المجذرة. عمران، 7 (27).

علي زريق. (2021). إنتهاك الخصوصية الرقمية وإستثمار البيانات الشخصية لمستخدمي فايسبوك. المنافذ الثقافية ـ مجلة ثقافية فصلية محكمة، 33، الصفحات 138 ـ 154.

غسان مراد. (2012). المعلوماتية أهم بكثير من أن نترك العمل بها للمعلوماتيين فقط. تم الاسترداد من المعلوماتية والعلوم الانسانية... وجهة نظر...: http://culture-informations.blogspot.com/2012/01/blog-post.html

غسان مراد. (18 حزيران، 2020). هل من المفترض أن تصبح الجامعة مركزًا

للأبحاث محاطاً بقاعات للتدريس؟ تم الاسترداد من مركز الأبحاث والدراسات في كلية الآداب والعلوم الإنسانية: http://cresh.ul.edu.lb

غسان مراد. (01 حزيران، 2023). الذكاء الاصطناعي: الإنسان «عبد» للتقنيّات؟ تاريخ الاسترداد 10 حزيران، 2023، من www.asasmedia.com: https://www.asasmedia.com/news/397147

محجوبة قاوقو. (29 تموز، 2019). المجتمع الافتراضي وإشكالية تجديد منهج البحث السوسيولوجي: نحو بناء نموذج لدراسة التفاعلات الإلكترونية بواسطة الحاسوب. عمران.

محمد فتحي عبد الهادي. (2007). مجتمع المعلومات بين النظريّة والتطبيق. مصر: الدار المصرية البنائية.

نديم منصوري. (2014). سوسيولوجيا الإنترنت. بيروت: منتدى المعارف.

نديم منصوري. (20 أذار، 2018). علم إجتماع الإنترنت وضرورته. تاريخ الاسترداد 13 تشرين الأول، 2022، من montliban: www.monliban.org/monliban/ui/topic.php

المراجع باللغة الإنكليزية

- Allan, G. (2003). A critique of using grounded theory as a research method. Electronic journal of business research methods, 2(1), pp. 1-10.
- Blumer, H. (1986). Symbolic interactionism: Perspective and method. Univ of California Press.
- Charmaz, K. (2008). Constructionism and the grounded theory method. Handbook of constructionist research, 1(1), 397-412.
- Charmaz, K. (2012). The power and potential of grounded theory. Medical Sociology Online, 6(3), 2-15.
- Charmaz, K. (2014). Grounded Theory in Global Perspective: Reviews by International Researchers. Qualitative Inquiry, 20(9), 1074-1084.
- Glaser, B. G. (1965). The constant comparative method of qualitative analysis. Social problems, 12(4), 436-445.

- Glaser, B. G., & Strauss, A. L. (2017). Discovery of grounded theory: Strategies for qualitative research. Routledge.
- Hine, C. M. (2000). Virtual Ethnography. California: Edition.
- Mitra, A., & Cohen, E. (1999). Analyzing the Web. Doing Internet Research: Critical Issues and Methods for Examining the Net, 179-202.
- Patton, M. Q. (2002). Qualitative evaluation and research methods. California: SAGE Publications.
- Strauss, A., & Corbin, J. (1994). Grounded theory methodology. An overview in Denzin's & Y. Lincoln (EDs). Handbook of Qualitative Research.
- Sudweeks, F., & Simoff, S. J. (1999). Complementary explorative data analysis: The reconciliation of quantitative and qualitative principles. Doing Internet research: Critical issues and methods for examining the Net, 29-55.

[قصيدة العدد]

وتجيء جفافًا

أ.م. د. إيهاب حمادة

الريح تسرق ما في الماء من ورقِ

لتُلبس الشمس عريَ الغيم في الغسق

ثمّ احترافٌ على مرمى أصابعها

من فرط ما رسم النارنجُ في الطرقِ

وكانت على ظله تستريح السواقي وتمشي تعثّر فيهن وجهي

انتبهتُ ووجهي ينامُ

وكانت على ظله تستريح الشفاهُ ويثغو الكلامُ

هي الساقيات تجيء جفافا إذا احمرّ توت البساتين أو ...

تكون العرائش في غفلةٍ عن فم الراحلين إلى الشمس ممن تراءى لهم طائر الرخ أو

تراءى الحمامُ

(*) نائب في البرلمان اللبناني وأستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية.

الريح تغزل وجه النهر لم تتبِ

لا يدرك النهر ما في الريح من تعبِ

حتى إذا افترت الأوراد عن شفةٍ

ما عاد بين فمي والوِرد من نسبِ

للضفتين حديثٌ من رأى قصبا

فليخبر الناي أن اللحن في القصبِ

وأمشي ثغاءً و رملًا وبعضا من النازلين على الريح والأغنيات الصبايا و أرجوحةً في يد الوقت والصمت أمشي احتفاءً بجنّيّة التين كانت على بيتنا في المساء تغني لها أذرعٌ من حبالٍ لها

حين أمشي على الماء طعم اخضرار اليباس وسبحان من...

وتحيا العظامُ

يدي في يد الشمس أسهو قليلا ترى

أفي الشمس لون المعاني

أفي الشمس عيناه أم في يدي من حنين الجرار الضرامُ

الشمس أغنية في خاطر الأعمى

والماء من قال إن الماء لا يظما

واللون بعدُ سرى في خاطري قزحا
لكنه الآن عاف اللوح والرسما

لا شمسَ لا لونَ لا نهرٌ ولا قزحٌ
إلا ظلالٌ إلى أسمائه تُنمى

تبعت الظلال ولم يسترح غير ظلي وكانت على ضفة الوقت حوريةٌ لا تغني تقول الغناءُ حرامُ

وكان ثغاءٌ ورمل صبايا و أرجوحةٌ كان جدي على عهدنا بالصبا لفّها من يد التين هل تعلمون إذا التين جاور صفصافةً كانتا شجْرةً واحدهْ
وأعلم يا جدُّ أنك تعني إذا جاورت روحُنا روحه الخالدهْ ..
وكان الختامُ

لم يقرأ الجد ما في هذه الكتبِ
حتى يفيض على العناب بالعنبِ

لكنه اعتاد أن يمشي وفي فمه
وِرد وكان ثمال الوِرد كان أبي

وليس الذي بيننا منذ عهد الصبا كالذي بيننا منذ عهد المشيب إذا لم يخنا الغرامُ

نجيء جفافا وكم تشتهينا السواقي
ويحمل من بوحنا ألفُ نهر
ولسنا سوى عابرين على ضوئنا حين صحوٍ
ونحن النيامُ

الموت أرجوحة في خاطر اللعبِ
طفلٌ ينام على كفيه من تعبِ

الموت مسعى يقول القمح منتشيا
للخبز آتيك من غمّازة الحطبِ

ويحدثُ أنْ في مقام الظلال التقى عاشقان وكانت تشير إلى الوقت عيناهما، وضلعان من غرفة في الوجود الصغير أقولُ على ضلعيهما في مراقي الوجود السلامُ

وكان لي ظلّيَ الممدود لم يغبِ
حتى تمشّى على خديه وجه نبيْ
وكانت الشمس تسهو عن حدائقنا
في الأرض لكنها مخضرّةُ الجنبِ
وكنت أضحكُ طفلا ملء جعبته

نهر، ورمل كأنْ يُفتضّ من ذهبِ
لم يمسك الشمس لكن في أصابعه
ما يشبه الشمس من ضوء ومن لهب

سعالٌ هو الوقت والساهرون على غفوة الحان لا يشعرون وليس الغناء سوى رحلةٍ في الثقوبِ سوى ما يقيم الحبابُ على حاجب العشبِ ليس الغناء سوى
عَزَفَ الساهرون الصلاة وتم الصيامُ
سهروا ولا أوراد في فمهم
كادوا و كنت أكاد أشتبهُ
كانوا سكارى والعيونُ صدى
لنعاسهم و نعاسهم ولهُ
ناموا قليلا ثم حين صحوا
ماتوا قليلا حينها انتبهوا

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com
البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com
الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: ISSN 2959-9431